الباب الثالث

في

الحياة العقلية

تمهيد

يتناول هذا الباب ما يمكن ان يكون فيه دلالة ومقياس على قوى العرب العقلية في بيئة النبي (ص) وعصره كاللغة وفنونها وكالقراءة والكتابة وانتشارهما، وكالعلوم والمعارف ومدى ما كان للعرب من مشاركة فيها، وما كان عند العرب من سحر وكهانة وما يمكن ان تدلا عليه من اطوار العقل العربي، وما كان من مدى إلمام العرب باللغات الاجنبية، وكموقف المشاقّة والمعارضة التي وقفها المشركون من الرسالة في مكة ويثرب ومدى ماتدل عليه من قوى عقلية.

ويتألف الباب من ثلاثة فصول:

الاول : اللغة القرآنية مقياس لقوى العرب العقلية.

الثاني : العلوم والمعارف ووسائلها.

الثالث : مواقف المشاقة ودلالتها على قوى العرب العقلية.

الفصل الأول

اللغة القرآنية مقياس لقوى العرب العقلية

اللغة مقياس صحيح لقوى الأمة العقلية — اللغة القرآنية وتمثيلها للغة بيئة النبي (ص) وعصره — تحليلات وتعليقات واستدلالات قرآنية في صدد صحة ذلك — سمو طبقة القرآن ودلالتها — بحوث وتعليقات اضافية في صدد ذلك — فنون اللغة — الشعر ومدى مفهومه — مدى نسبة الشعر الى النبي (ص) ونفيها — خطورة الشعر والشعراء — السجع والسجع القرآني — تعليقات وتنبيهات في صدد السجع وخطورته — الترسل والترسل القرآني — تنبيهات على البراعة الاسلوبية في استعمال السجع والمرسل — الأمثال والأمثال القرآنية — القصة والقصص القرآني — النحو والصرف والاشتقاق ودلالة نضوجها التام — فنون الكلام القرآني الاخرى ودلالاتها — اللغة الأدبية واللغة التخاطبية وميزتها العجيبة التي تتحدان فيها .

— ١ —

مما لامراء فيه أن لغة أمة ما في احد عصورها هي من مقاييس قواها العقلية في ذلك العصر ؛ لأن اللغة وسيلة للتعبير عما يكون في ذهن الانسان من افكار ومعان ، وما يشعر به من حاجات مختلفة ؛ فاذا كانت أمة ما في احد عصورها ضعيفة المادة والأداء ، ضيقة المجال كان ذلك برهاناً على ضيق افق تلك الأمة في ذلك العصر وضعف معارفها وتجاربها وقواها العقلية ، وعلى العكس من ذلك اذا كانت غزيرة المادة دقيقة الاداء ، تتسع لشتى الافكار والمعاني ، غنية في المفردات فأن ذلك يكون دليلاً على نشاط الذهن وسعة الأفق ، وقوة الافكار والتجارب والحيوية العقلية ، فنحن على صواب اذا اتخذنا اللغة مقياساً من مقاييس القوى

العقلية للعرب ، او مظهراً من مظاهر حياتهم العقلية في عصر النبي (ص) وبيئته.

وليس في يدنا صورة للغة ذلك العصر والبيئة اصدق ولا أوثق ولا أغزر مادة من لغة القرآن . فهو من جهة فوق كل مظنة او شبهة في أنه وصل الينا كما بلغه النبي (ص) ، وهو من جهة ثانية الكلام الوحيد الذي وصل الينا مدوناً وسليماً من كل شائبة وشك من ذلك العصر ؛ في حين اننا لانستطيع ان نقول هذا القول بهذه القوة والجزم عن اي كلام مما روي من كلام ذلك العصر والبيئة ؛لانه لم يدون الا بعد مدة طويلة ، وقد ظل طول هذه المدة تتناقله الالسن ، وعرضة للتبديل والتحريف والزيادة والنقص بل والتلفيق والصنع،والأهواء والأغراض.

وكون لغة القرآن تمثل لغة عصر النبي (ص) وبيئته بنوع خاص مما لايحتمل شكا ولا كلاماً في ما نعتقد ، وقد أكدنا هذا في فصل سابق ، واستعرضنا في سياقه الآيات القرانية العديدة التي فيها الدلالة والدعامة الصريحتان القويتان ، وانتهينا استناداً الى النصوص القرآنية الى تقرير كون لغة القرآن هي من حيث المفردات والمصطلحات والتراكيب والاستعارات والتشابيه هي ما كان مألوفاً ومفهوماً ومستعملاً من حيث الاجمال — وبقطع النظر عن الكثرة والقلة والسعة والضيق — في بيئة النبي (ص) وعصره قبل البعثة بنوع خاص وسائر العرب بوجه عام .

— ٢ —

وقد أعدنا استعمال جملة « من حيث الاجمال » هنا كما استعملناها هناك لنقول بالاضافة الى ما قلناه هناك انه في كل بيئة — حتى في ارقاها التي يكون التعليم فيها قد يُسرت وسائله تسييراً واسعاً — لابد من ان يوجد تفاوت بين افرادها في قوة الفهم والتعبير باللغة ، وحسن الأداء والتاقي ، ودقة الاستعمال ، وعمق النفوذ ، وحسن السبك والاسلوب ، وغزارة المادة ، وان هذا التفاوت هو مظهر من مظاهر التفاوت الطبيعي في قوة العقل وحدة الذكاء ، وسعة الاطلاع والتجارب وغزارة العلم والمعرفة ،وأننا لنجد من أجل هذا في الأمة الواحدة او في مجتمعاتها من لا يكون في واعيته اكثر من الفي كلمة يستعملها في حاجاته والتعبير عن ما في

لنفسه ، بينما نجد من يكون لديه عشرة آلاف كلمة او اكثر يستعملها كذلك في حاجاته والتعبير عما في نفسه ؛ ومع ذلك تكون اللغة بمجموعها من مفردات وتراكيب ومصطلحات مهما تفاوت الأفراد في ما بينهم من النصيب فيها هي لغة مجموع الأمة من حيث الاجمال . ومن الطبيعي ان ينطبق هذا على الأمة العربية في عصر النبي (ص) وبيئته ايضاً. واذا كان من المسلم به ان طبقة لغة القرآن السامية لايمكن أن تمثل من حيث الاستعمال والاسلوب وسعة التناول والأداء اكثرية الأمة العربية في ذلك العصر ، وان من المعقول انها من هذه الناحية لاتمثل إلا اقليتها او فئة محدودة منها فان من الحق ان يقال إنها من حيث فهمها ومداها تمثل اكثرية الامة ، وان قول بعض المؤلفين انها كانت فوق مستوى عقول الناس ومتناولهم ومدركاتهم وخاصة من حيث الفهم لايتفق مع الوقائع من جهة ولا مع طبيعة مهمة الرسول (ص) وهي الاتصال بجميع الناس ومختلف فئاتهم ودرجاتهم ومخاطبتهم بلغة القرآن التي كانت حتماً هي لغة النبي (ص) وتلاوة القرآن عليهم من جهة اخرى ، وهي الطبيعة التي يمكن استشفافها من آيات قرآنية كثيرة نورد منها الأمثلة التالية :

١ — ... كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ... هود ١

٢ — ... وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم ولعلهم يتفكرون ... النحل ٤٤

٣ — ... وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً ... الاسراء ١٠٦

٤ — الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً. قيّماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً... الكهف ١-٢

وفي القرآن آيات كثيرة جداً حكت اقوال المشركين في القرآن ولجاجهم تدل دلالة صريحة على انهم فهموه كل الفهم وجادلوا فيه ، واقوالهم المحكية مندمجة في الاسلوب القرآني اندماجاً تاماً ؛ حتى على فرض ان يكون القرآن قد حكى مآل اقوالهم بأسلوبه فان هذا لاينقض دعوى كون اقوالهم في مفرداتها واساليبها

مماثلة لمفردات وأساليب القرآن ،ومثل هذا يقال بالنسبة لآيات كثيرة حكت اقوال ومواقف المسلمين والكتابيين من القرآن مما لايكاد يحصى كثرةً ويكاد يكون في كل سورة من السور الطويلة والمتوسطة،وما سبق في الفصول السابقة امثلة كثيرة له ، وما يجعلنا نكتفي بما نورده هنا من امثلة قليلة اخرى :

١ — واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون...الأعراف ٢٠٤

٢ — واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إنْ هذا إلا أساطير الأولين ... الانفال ٣١

٣ — واذا ما انزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ... التوبة ١٢٤

٤ — وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم ولعلهم يتفكرون ... النحل ٤٤

٥ — وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون ... النحل ٦٤

٦ — وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ...الاسراء ١٠٦

٧ — طاها . ما انزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى ... طاها ١-٣

٨ — وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤوا ظلماً وزورا . وقالوا اساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ... الفرقان ٤-٥

٩ — وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ... الفرقان ٣٢

١٠ — وان أتلو القرآن فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين ... النمل ٩٢

١١ — وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون... فصلت ٢٦

١٢ — ... وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ... الاحقاف ١٢

ولقد كان اتصال النبي (ص) بطبيعة الحال بجميع الطبقات من حضر وبدو مكيين وغير مكيين وحجازيين وغير حجازيين ، وأميين وكتابيين ، بل وعرب افحاح واجانب لا يعرفون العربية الا الماماً او بالتعلم ، وكان اول ما يخاطبهم به ويتلوه عليهم هو آيات القرآن، ولا يكون هذا مفهوماً ولا لو لم تكن لغة القرآن مفهومة من هذه الفئات والطبقات المتفاوتة والمتنوعة .

وليس فيما نرى في وجود طبقة من اهل بيئة النبي (ص) وعصره تفهم لغة القرآن فهما عميقاً وتستعملها — ولو كانت قاصرة على النيرين في المدن — مع فهم اكثر الطبقات والفئات الاخرى لها فهما اجمالياً وهو ما يتبادر الى الذهن في هذا الموضوع ، تناقض او ثغرة يورد علينا منها ان طبقة لغة القرآن لا تمثل بيئة النبي (ص) وعصره ذلك التمثيل العقلي الذي نريد ان نقرره . فأن هذا هو الشأن العام في كل امة وفي اى عصر من عصورها . واللغة المدونة لأمة او عصر هي التي تصل عادة الى العصور التالية وتكون الوسيلة لقياس قواها العقلية من هذه الناحية دون ما اعتراض او تناقض . وهذا المعنى يكون اقوى بالنسبة لعصر النبي (ص) وبيئته الذين لم يكن التعليم فيها كافيين لايجاد طبقة خاصة من النبهاء والنيرين بوسائل ثقافية منظمة واصطناعية ؛ حيث تكون دعوى سعة نطاق طبقة المتكلمين والفاهمين لما يصل الى الاجيال التالية من لغتها المدونة اضعف حجة واشد سنداً .

— ٣ —

هذا ؛ ولقد كتب العلماء والفضلاء والادباء واللغويون قديماً وحديثاً عن الطبقة السامية التي عليها لغة القرآن من قوة البيان ، وروعة الاسلوب ، وبلاغة التعبير ، ونفوذ المعنى ، ودقة الاداء ، ونصاعة الحجة ، وسعة المتناول ، وغزارة المادة وفنونها مالا مزيد عليه إلا ان نقول ان كل ذلك يصح ان يعتبر مصوراً الناحية من النواحي العقلية العربية في بيئة النبي (ص) وعصره ، ومظهراً من مظاهر حياتها العقلية كما اعتبرنا ما جاء فيه مصوراً لحياتهم المادية والمعاشية . فبيئة في عصر

تصل مادة التعبير عما في ذهنها من معان وحاجات ، وما يدور في رأسها من افكار بهذه اللغة القوية في بيانها ، الرائعة في اسلوبها ، البليغة في تعبيرها ، النافذة في معانيها ، الدقيقة في ادائها ، الناصعة في حجتها ، الواسعة في متناولها ، الغزيرة في مادتها وفنونها لا يمكن إلا ان تكون من حيث الاجمال على حظ غير يسير من رقي العقل ، وحدة الذكاء ، واضطرام الذهن ونشاطه ، واتساع الأفق والتجربة والمعرفة .

ولقد يقول قائل إن القرآن كلام الله ، وانه لا يصح ان تقاس به قوى العرب العقلية ، وانه قد تحدى الكفـــار بأن يأتوا بحديث او سورة او سور من مثله فعجزوا كما جاء في الآيات المكية التالية :

١ — أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ... يونس ٣٨

٢ — أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثـــله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين ... هود ١٣

٣ — قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ... الاسراء ٨٨

٤ — أم يقولون تقوّله بل لا يومنون . فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين الطور ٣٣— ٣٤

غير اننا نقول ان هذا التحدى والعجز عن الاستجابة اليه لا يتعـارضان مع ما قررناه من كون لغة القران بمادتها ومفرداتهـا وتراكيبها هي لغـة عصر النبي (ص) وبيئته ، وانها كانت اللغة المفهومة المأنوسة من الناس على اختلاف طبقـاتهم بوجه عام ، واللغة المفهومة المأنوسة والمستعملة في الحديث والكتابة من الطبقة النيرة بوجه خاص مما يسنده تقريرات القرآن الصريحة التي استعرضناها قبل .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان الناس يسمعون الشاعر المفلق ، والخطيب المصقع ، ويقرأون الكاتب العبقري فيفهمون كلامهم كل الفهم وخاصة الطبقة المثقفة منهم ، وينفذون الى دقائق ما يسمعون ويقرأون ، دون أن يرد بأن ما يقرأون

ويسمعون هو غير لغتهم او غير طبقة لغتهم ، ودون ان يخرجهـــا إبداع الشاعر والخطيب والكاتب في الاسلوب عن طبقتهم اللغوية . وامتيازهم انما يكون في إبداع الأسلوب الذي يقفون منه على روعة وقوة وسمو حديث له حلاوة وطلاوة تجعلان لا صحابه تلك الميزة الابداعية التي يتميزون بها والتي يعجز الناس عن الأتيان بمثلها ولله ولكتابه المثل الأعلى ؛ على ان هذا لا يعني في حال انقطاعـاً بين طبقة هؤلاء وبين طبقة لغة البيئة الأدبية الراقية مفردات ومادة وتركيب وقواعد الخ الخ ؛ والامكان من المتعـذر ان تفهم الوحدة اللغوية في بيئة من البيئات فهماً صحيحاً . والواقع يؤيد هذا ، حيث يوجد دائماً تقـارب ما في الاسلوب والاداء والروعة في كتابة وخطابة وشعر عصر من العصور ولا سيما الطبقة المتفوقة ، ولا يندر ان يأتي اكثر من واحد بأسلوب فيه روعة وسمو وابداع ، ونعتقد ان هـذا ينسحب على لغة أهل عصر النبي وبيئته لانه ظاهرة طبيعية .

على اننا نرى من ناحية اخرى ان التحدى الذي تحدى به الكفار هو لما في القرآن من روحانية وصدق لهجة واستقامة دعوى ، ونصاعة حجة ومضامين وروعة نظم معاً وليس لمـادته ومفرداته اللغوية وفنونه اللفظية والصرفية والقاعدية لذاتهـا . وبهذا يستقيم الأمر ويتسق المدى القرآني في تقرير عروبة لغة القرآن ، وكونها لغة ولسان العرب ولسان النبي (ص) وقومه ، وفي تحدي الكافرين في آن واحد.

وفي النصوص القرآنية ما يسند بقوة هذه التوجيه الذي لم ننفرد به . فمن جهة قد تجاء قبل آيات التحدي او بعدها آيات من مثل ذلك كما ترى في ما يلي .

١ — ... وما كان هـذا القرآن ان يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ... يونس ٣٧

٢ — ... بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمـه ولما يأتهم تأويله (١) كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ... يونس ٣٩

٣ — فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعـلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ... هود ١٤

(١) لم يظهر بعد تحقيق ما وعد به وأشار إليه فتعجلوا بالتكذيب .

٤ — ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ... الاسراء ٨٩

٥ — فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . ام يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فاني معكم من المتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ... الطور ٢٩ — ٣٢

ومن جهة قد جاء في سورة الانعام والانفال آيتان هما :

١ — ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ... الانعام ٩٣

٢ — وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الاولين (١) ... الانفال ٣١

حيث تلهان ان من أهل بيئة النبي (ص) من ادعى القدرة على حكاية القرآن ؛ ومع أن عجزهم عن ذلك لا ريب فيه فانهم لم يكونوا ليدعوا هـــذا إلا لكونهم رأوا أن القرآن في مادته وتراكيبه وفنونه اللفظية إنما هو مثل تراكيبهم ومادتهم وفنونهم اللفظية ، وأن هذا في متناولهم ، وغفلوا عن تلك الروحانية والبهجة الصادقة ، والدعوة المستقيمة ، والحجة الناصعة ، والدعوة الحق فتحداهم الله بأن يأتوا بمثله من هذه النواحي .

ولعل في تكرار حكاية نسبتهم افتراء القرآن إلى النبي (ص) ما يدخل في هذا المعنى على ما هو المتبادر .

---

(١) في ابن هشام ج ٦ ص ٣٢ ان النضر بن الحرث كان إذا جلس رسول الله (ص) بمجلس دعا فيه إلى الله تعالى وتلا القرآن وحذر مما أصاب الامم الخالية خلفه في مجلسه فحدثهم عن رستم الشديد وعن اسفنديار وملوك فارس ثم يقول والله ما محمد بأحسن حديثاً مني وما حديثه إلا أساطير الاولين أكتبها كما أكتبها .

على أننا نعرف أن بعض الذين يقولون أن التحدي إنما كان للتراكيب والمادة والاسلوب والنظم يقولون بنظرية الصرف ، أي أن الله قد صرف الكافرين عن الاتيان بمثله من هذه النواحي فعجزوا مع أنه من جنس لغتهم . وفي هذا القول اعتراف كما هو واضح بأن لغة القرآن في مادته وأسلوبه ونظمه وفنونه اللغوية كان مما يدخل في متناول العرب الاتيان بمثله لو لم يصرفهم الله عن ذلك ؛ وقد قالوا هذا لانه لم يسعهم أن يدعوا بأن لغة القرآن غير لغة أهل بيئة النبي (ص) وعصره في مادتها اللغوية وفنونها اللفظية . وفي هذا تأييد لوجهة نظرنا من حيث الاساس بقطع النظر عما إذا كان يستقيم القول بأن الله قد صرف العرب عن شيء تحداهم فيه ، إذا تكون النتيجة أنه لو لم يصرفهم لأتوا بمثله...

— ٤ —

وفي آيات القرآن وفي أساليبه دلائل على ما كانت عليه اللغة العربية في عصر النبي (ص) من فنون يمكن أن تكون مقاييس على قوى العرب العقلية ونشاطهم الذهني وذوقهم الفني ايضاً .

من هذه الفنون « الشعر » ، فقد أشير إلى الشعر والشعراء في عدة آيات كما ترى .

١ — بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الاولون ... الانبياء ٥

٢ — والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون مالا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا ... الشعراء ٢٢٤ — ٢٢٧

٣ — وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ... يس ٦٩

٤ — ويقولون أءنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون . بل جاء بالحق وصدّق المرسلين ... الصافات ٣٦ — ٣٧

٥ — أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فاني معكم من المتربصين ... الطور ٣٠ — ٣١

٦ — وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ... الحاقة ٤١

وإذا كان قرض العرب في عصر النبي (ص) وبيئته للشعر من البدائه التي لا تحتاج إلى تقرير فان هناك أموراً مهمة يصح أن تضاف إلى هذه البديهة في هذا المقام ؛ منها أن شعر العرب في ذلك العصر والبيئة لا بد من أنه كان متساوقا في سمو طبقته وبلاغته وروعته مع لغة القرآن ؛ وذلك ما يـــدل عليه نسبة العرب الشعر والشاعرية إلى النبي (ص) وهم يسمعونه يتلو آيات القرآن وروائعه أكثر مما يدل عليه نماذج الشعر المروية التي قد تحتمل التوقف كثيراً أو قليلا من وجهة صحة النسبة . وأن الامة التي تصل قوة الشـاعرية والشعراء فيها في عصر من عصورها إلى طبقة من السمو والقوة تتساوق مع طبقة سمو القرآن وقوتها وروعتها لتنم عن رقي في إحساسها ، وفوران في عواطفها ، وقوة في خيالها ومشاعرها إلى درجة رفيعة .

ومنها ما يحسن التساؤل فيـه عن السبب الذي جعل العرب ينسبون الشاعرية إلى النبي (ص) . فالقرآن لا يحتوي شعراً منظوماً يتفق مع أنمـاط الشعر العربي المنظوم وأساسه البيت المؤلف من شطرين متوازيين ، وإذا كان البيت من قصيدة فتلازم وحدة القافية في أواخر كل بيت منها . فهل كان العرب يعبرون عن الكلام البليغ الذي يحتوي معاني رائعـــة أو شعرية بكونه شعراً ولو لم يكن موزوناً ومقفى ؟ أو هل كانوا يطلقون تعبير الشعر حتى يتناول الكلام المسجوع بدون وزن او المقفى بدون سجع أيضاً بالاضافة إلى إطلاقه على المقفى الموزون . فانه إذا لم يكن في القرآن كلام موزون ومقفى يصح أن يطلق عليه إسم الشعر كما عرفـه علماء العروض ففيه كثير من الآيات بل السور ما جاء بأسلوب مسجع أو أسلوب مقفى ، بل وفيه ما يكاد يكون موزوناً ومقفى بعض الشيء ، وفيه مايشبـه الرجز كذلك ولو لم تكن الجملة في كل من النوعين مؤلفة من شطرين مترابطين كما ترى في الامثلة التالية :

١ ــ والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وماينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى . علمـه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالافق الأعلى . ثم دنى فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى .

ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى ... النجم ١ — ١٢

٢ — يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر . فاذا نقر في الناقور . فذلك يومئذ يوم عسير . على الكافرين غير يسير . ذرني ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالا ممدوداً . وبنين شهوداً . ومهدت له تمهيداً . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيداً . سأرهقه صعوداً . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر . لا تبقي ولا تذر . لواحة للبشر . عليها تسعة عشر ... المدثر ١ — ٣٠

٣ — والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها . والسماء وما بناها . والارض وما طحاها . ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها . كذبت ثمود بطغواها . إذ انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها . فكذبوه فعقروها . فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها . ولا يخاف عقباها ... الشمس ١ — ١٦

٤ — والعاديات ضبحاً . فالموريات قدحاً . فالمغيرات صبحاً . فأثرن به نقعاً . فوسطن به جمعاً . إن الانسان لربه لكنود . وإنه على ذلك لشهيد . وإنه لحب الخير لشديد . أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور . وحصل ما في الصدور . إن ربهم بهم يومئذ لخبير ... العاديات ١ — ١٠

٥ — فيقول هاؤم اقرؤا كتابية . إني ظننت أني ملاق حسابية . فهو في عيشة راضية . في جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الايام الخالية ... الحاقة ١٩ — ٢٤

وإن التالي لهذه الايات وأمثالها الكثيرة في القرآن وخاصة المكي ليجد كلاماً قوياً أخاذاً ليس بالشعر المنظوم ولكنه غير بعيد منه ولا غريب عنه ، ويجد فيه شيئاً مما يقال له ضرورات الشعر في التقديم والتأخير لمساوقة الروي كما هو في آيات

المدثر والعاديات ؛ بالاضافة إلى ما يجده فيه من التمثيل الرائع والوصف البليغ والمعنى النافذ .

ومع أننا لا نستطيع أن نجيب على ما تساءلنا عنه جواباً شافياً مما ورد في القرآن، وأنه لا يسعنا إلا التسليم بأن الشعر المنظوم هو الذي كان مفهوم كلمة الشعر ، وأن الشعراء الناظمين هم الذين كانوا مفهوم كلمة الشعراء بصورة عامة بسبب التواتر الذي بلغ مبلغ اليقين في تقرير هذا أولا، وبالقرينة القرآنية القائمة خاصة في آيات سورة الشعراء ثانياً ، فاننا نسوغ لانفسنا أن العرب ما كانوا ليقولوا عن النبي (ص) أنه شاعر لو لم يروا في القرآن ما يصح أن يطلق عليه اسم الشعر في روعة النظم والاسلوب والقوة الاخاذة المؤثرة في أعماق النفس ، والمحتوية بليغ الامثال ، ورائع الاستعارات والوصف دون أن يروا ضرورة التقيد بوزن أو بحر ؛ لا سيما هذه الآيات القصيرة التي فيها روى أو قافية ، وفيها نبرة الشعر وأدائه . فاذا صح هذا فان مدى الشعر وتعريفه عند العرب أو عند الطبقة النيرة — أو المتأدبة منهم إن صح التعبير — منهم على الاقل في عصر النبي (ص) وبيئته كان أوسع من تعريفه المعروف الذي يقوله علماء العروض ؛ وهذا المعنى الاوسع هو الذي يقول به الادباء الحديثون وهم يقسمون الشعر إلى منظوم ومنثور ، ويلاحظون في وصف الشعر جماله وروعته وفنه وجماله معاً . وهكذا يكون ادباء عصر النبي (ص) وبيئته قد نفذوا الى معنى لم ينفذ إليه الا بعد قرون طويلة . ودلوا على ذوق فني ، وروح مرهفة ، ونظره بعيدة وافق اوسع ايضا .

— ٥ —

ولا يقتضي من قولنا هذا ان يكون النبي (ص) شاعراً بالفعل . فالقرآن قد رد على الذين قالوا عنه ذلك ، ونفى ان يكون قد تعلم الشعر ، وقرر انه لا ينبغي له ؛ وهذا حق كل الحق وصدق كل الصدق من دون ريب؛ والروايات متواترة على ان النبي (ص) لم ينظم شعراً وانه كان حينما يتمثل بأحد ابيات الشعر المنظوم لم يكن يأتي به على وزنه وقافيته ، وكان احياناً يكتفي بالاشارة اليه . وانما هذا لاينفي ان يكون العرب قد رأوا كما قلنا في القرآن ما هو بسبيل الشعر وانماطه

واستعاراته وتشبيهاته وبلاغته وادائه ونبرته ومقاطعه ، فاطلقوا عليه « الشعر » وقالوا عن النبي (ص) انه شاعر . وبالاضافة الى هذا يمكن أن يقال إن الله تعالى اراد بهذا النفي والتوكيد اخراج النبي (ص) من طبقة الشعراء الذين كانوا يتصفون بما وصفتهم آيات الشعراء ايضاً ؛ وتقرير اختصاصه بكرامة النبوة والرسالة ، وانه ليس ممن يلقون القول على عواهنه ، ويهيمون في كل واد ويقولون مالا يفعلون كما كان شأن الشعراء ، وان القرآن انما هو ذكر وقرآن مبين ، وان الذين اتبعوه ليسوا من الغاوين الذين يتبعون الشعراء ويتأثرون بهم . وكل هذا يمكن الاستئناس به على المعنى الذين نحن بسبيل تقريره . وورود آية « إن هو الا ذكر وقرآن مبين » في آيات سورة ياسين التي تقرر ان الله لم يعلم النبي الشعر ولا ينبغي له قد يكون دليلا او قرينة قوية على صواب ما نقرر . وتزيد الآية التالية لهذه الآية هذا التقرير قوة حيث جاء نصها « لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ».

— ٦ —

هذا ، ومن الممكن الاستدلال مما جاء في القرآن من الحملة على الشعر والشعراء اولاً على ما كان للشعر والشعراء من خطورة في بيئة النبي (ص) وعصره ، وعلى أنه كان من اهداف القرآن مقاومة او إضعاف هذه الخطورة ليصفو المكان للقرآن دون الشعر وللنبي (ص) دون الشعراء . وثانياً على ما كان لشعراء الكفار من موقف مؤذ في العهد الاسلامي مستمد من قوة مركز الشعراء وتأثيرهم وخطورتهم . واستثناء المؤمنين من التشنيع في الآية الاخيرة من سورة الشعراء يدل على ان النبي (ص) اضطر الى مجاراة الظروف والاهتمام لخطورة الشعر والشعراء ، وتشجيع شعراء المسلمين على الرد على شعراء الكفار ومقابلتهم بالمثل ؛ فكان في هذا الاستثناء حافز ومشجع . وثالثاً على انه كان من عادة الشعراء في ذلك العصر والبيئة التراد او الملاحاة او المعارضة فيرسل الشاعر قصيدة في هجو او عتاب او فخر فيقابله خصمه عليها بهجو اوعتاب او فخر وهكذا دواليك ، وعلى انه كان من العادة كذلك ان ينافح الشاعر عن قومه او قبيلته او نحلته ، فيرد شاعر الخصم عليه مناقضاً كذلك عن قومه او قبيلته او نحلته . واستثناء الشعراء المؤمنين الذين

انتصروا أي ردوا على العدوان بمثله قرينة قرآنية على هذه العادات التي تواترت الروايات عنها حتى بلغت مبلغ اليقين . ورابعاً على ان الشعراء كانوا يخوضون منحى المبالغة والتهييج والاثارة دون ان يكونوا في هذا صادرين عن عقيدة واخلاق وجد وحقيقة صادقة .

ولقد كان العرب يعتقدون ان بين الشعراء والجن بعض العلاقات والاتصالات ، وكان لهذه العقيدة اثر في نسبة الشعر والشاعرية الى النبي (ص) وهذا ما سوف نشير اليه في الباب الرابع .

— ٧ —

ومن الفنون اللغوية التي يستدل عليها من القرآن « السجع » وهو الكلام المقفى الذي لا يشترط فيه وزن ولا بحر . وفي القرآن جملة صالحة ورائعة منه ، منها الطويل ومنها القصير ننقل منها الامثلة التالية بالاضافة الى ماتقدم قبل قليل :

١ — اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا اهواءهم وكل امر مستقر . ولقد جاءهم من الانباء مافيه مزدجر . حكمة بالغة فما تغن النذر ... القمر ١ — ٥

٢ — الرحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا في الميزان ... الرحمن ١ — ٨

٣ — هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً . إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً . إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا . إنا أعتدنا للكافرين سلاسل واغلالاً وسعيراً . إن الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً . عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً الانسان ١ — ٦

٤ — والفجر وليال عشر . والشفع والوتر . والليل اذا يسر ، هل في ذلك قسم لذي حجر . ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذي الاوتاد . الذين طغوا

في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ... الفجر ١ — ١٢

٥ — ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم في تضليل . وأرسل عليهم طيراً ابابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول سورة الفيل .

٦ — إنا عطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر . إن شانئك هو الأبتر ... الكوثر

وفي القرآن اربع سور [1] مسجعة الآيات ، ولآياتها لازمة ، وذلك ان تردد آية بذاتها فيها انذار او تذكير او تنديد بعد كل آية او جملة آيات . وهو فن آخر من اساليب الكلام لم ينسج على منواله فيما نعلم [2] ، ولم نرا احداً من علماء الادب نوه به مع انه ظاهر الميزة . وهذه امثلة منه :

١ — ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . ذواتا أفنان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيهما عينان تجريان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيهما من كل فاكهة زوجان . فبأى آلاء ربكما تكذبان .

الرحمن ٤٦ — ٥٣

٢ — ألم نهلك الاولين . ثم نتبعهم الآخرين . كذلك نفعل بالمجرمين . ويل يومئذ للمكذبين ، ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه في قرار مكين . الى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون . ويل يومئذ للمكذبين . ألم نجعل الارض كفاتاً . احياء وأمواتاً . وجعلنا فيها رواسي شامخات واسقيناكم ماء فراتاً . ويل يومئذ للمكذبين .

المرسلات ١٦ — ٢٨

— ٨ —

والروايات العربية تقول في صدد السجع انه كان في الغالب كلام الكهان والعرافين والهواتف في الاحلام . والذي ذكرته الروايات من الكلام المسجع

---

(١) الشعراء والقمر والرحمن والمرسلات .

(٢) رأينا في بعض خطب الأستاذ أسعاف النشاشيبي شيء من هذا النحو .

القديم انما كان جله معزواً الى هذه الطبقة (٣) . ولقد كان العرب كما حكت آيات القرآن يقولون عن النبي (ص) انه كاهن . ولعل من جملة اسباب ذلك ما كان يتلوه من الآيات والسور المسجّعة . ويمكن ان يكون في قولهم على هذا التعليل دليل على صحة أصل الروايات العربية من أن اجوبة الكهان للناس كانت سجعاً وان كنا نشك في ما يعزى اليهم من المقطعات المسجّعة المدونة والتي لا تخلو من آثار الصنعة والتلفيق رواية ونصاً . اما الصورة الصادقة الصحيحة للسجع ومقطعاته وفنونه فانما هي في القرآن . ومن النماذج التي نقلناها منها وهي قليل من كثير يمكن ان يرى المرء في السجع فناً وذوقاً وجمالاً وقوة أداء وتأثير ، وفي هذا مظهر من مظاهر القوة العقلية العربية لأنه متصل باللغة العربية كما هو واضح .

وفي القرآن ثمان وستون سورة مسجعة او في مدى ذلك ، منها (٥٧) قصيرة وخمس متوسطة وست طويلة ومعظمها اي (٦٤) منها مكي . ولعل في هذا دليلاً على ما كان للسجع من دولة وتأثير ونفوذ في الاسماع والقلوب في عصر النبي (ص) وبيئته . وقد أردنا من جملة « او في مدى ذلك » السور التي آياتها موزونة بدون قافية ، حيث رأينا انها تدخل في نطاق التسجيع من ناحية مع الاشارة الى أن السور التي ينطبق عليها وصف السجع الصحيح اى المقفى هي الأكثر .

وننبه اولاً على انه بالاضافة الى ذلك العدد من السور التي هي مسجعة او

---

(٢) مما رواه هشام ج ١ ص ١٣٤ من اقوال الهاتف الذى أمر عبد المطلب بن هاشم جد النبي (ص) بحفر بئر زمزم : « احفر زمزم . لا تنزف ولا تذم . تسقي الحجيج الأعظم . وهي بين الفرث والدم . عند نقرة الغراب الأعصم » . ومما رواه كذلك ج ١ ص ١٥ من اقوال سطيح الكاهن في تفسير رؤيا تُبّع اليمن : « أحلف بما بين الحرتين من حنش . ليهبطن ارضكم الحبش . فيملكن ما بين أبْيَن الى جرش . ولما سأله تبع اليمن عن موعد ذلك أجاب : بعد ملكه بحين بسنتين او سبعين . يمضين من السنين . ونحن اذ نورد هذين النموذجين لا نرويها كحقيقتين ولكن ورودهما في كتاب من أقدم الكتب العربية يعطينا صورة عن سجع الكهان والهواتف الذي تناقلته الألسنة وحفظته الصدور .

موزونة كلها فان السور الاخرى قلما تخلوا من جملة آيات مسجعة أو موزونة ايضاً ، وهو يؤيد ما قلناه من قوة السجع ونفوذه . وثانياً على ان السجع ليس واحد القافية في السورة الواحدة دائماً ، فهناك سور فيها سلاسل مسجعة ذات قواف متعددة كما هو في آيات سورة المدثر والمرسلات والفجر التي تقلناها ، وهناك سور فيها سلاسل مسجعة بقواف واحدة أو متعددة وسلاسل موزونة الآيات بغير قافية واحدة ، بل وهناك موالاة بين هذا وذاك في سلسلة واحدة ايضاً . وفي كل هذا مظاهر فنية من مظاهر اللغة القرآنية التي هي لغة بيئة النبي (ص) وعصره جديرة بالتنويه في هذا المقام .

— ٨ —

ومن هذه الفنون «المرسل» الذي لا يتقيد بقافية ولا وزن . واكثر آيات القرآن من هذا النوع ؛ حيث هو أسلوب اكثر السور الطويلة والمتوسطة ، وفيه الطويل بحيث تزيد كلمات بعض الآيات منه على المئة وعلى السبعين كما ترى في الامثلة التالية :

١ — يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب ان يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فان كان الذي عليه الحق سفيهاً او ضعيفاً أو لا يستطيع ان يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى ولا يأب الشهداء اذا مادعوا ولا تسأموا ان تكتبوه صغيراً أو كبيراً الى اجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ان لا ترتابوا إلا ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ان لا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم ...

٢٨٢ البقرة

٢ — ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد اهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الامر من

شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في انفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور ...

آل عمران ١٥٤

وفيه المتوسط وهو اكثر المرسل القرآني وهذه أمثلة منه :

١ — أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين . لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم ...

التوبة ١٠٩ — ١١٠

٢ — إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم تجري من تحتهم الانهار في جنات النعيم . دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ... يونس ٩ — ١٠

٣ — وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا بربهم ألا بعداً لثمود ... هود ٦٧ — ٦٨

وليس في هذا النوع قصير جداً ، وكل ما في الأمر أن بعض آيات تكون في بضع كلمات كما ترى في الامثلة التالية :

٤ — بل هم في شك يلعبون . فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين . يغشى الناس هذا عذاب اليم . ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ...

٩ — ١٦ الدخان

ونلفت النظر مع ما وصفنا به المرسل إلى أن المرسل القرآني لا يخلوا من رنة تركيبية او توزينية في اواخر آياته بقطع النظر عن عدم التقفية والوزن والروي كما هو ظاهر في الأمثلة التي نقلناها ، وفي الآيات القرآنية المرسلة التي هي غالب آيات القرآن .

— ٩ —

كذلك نلفت النظر الى نقطة مهمة في صدد نوعي النثر والسجع والمرسل وهي

البراعة الأسلوبية في استعمال كل منها في المقام المناسب له . فالذى يتدبر آيات القرآن يجد ان الآيات المسجعة القصيرة وكذلك المرسلة القصيرة قد استعملت في الغالب في مقام التبشير والانذار والوعد والوعيد والانذار والتمثيل ، لان في اسلوبها ونبراتها وادائها ما يسترعي الانتباه بسرعة ، ويخاطب العاطفة والقلب ، وان الآيات المرسلة المتوسطة والطويلة والآيات المسجعة الطويلة استعملت في الغالب في مقام الجدل والحجاج والتعليم والتشريع والتقرير والحكاية وضرب الامثال لان هذه المقامات تتطلب على ما هو متبادر نفساً طويلاً ، ويخاطب بها العقل اكثر مما تخاطب بها العاطفة ، ويقصد بها التفهيم والتبصير وحمل المخاطب على التفكير والتدبر والمقايسة والاستنتاج اكثر مما يقصد بها الترهيب والترغيب والوعد والوعيد

وليس من ريب في ان هذا الذي اتسعت له اللغة من التنويع والمطاوعة في الأداء والبيان والتناسب مع مقامات القول فضلاً عن السلاسة وحسن السبك وروعة الديباجة ليعطي للسان العربي في عصر النبي (ص) وبيئته صورة رائعة حقاً ، ويضعها في درجة رفيعة جداً .

— ١٥ —

ومن هذه الفنون « الأمثال » وهي في القرآن على نوعين . أحدهما تمثيل ومقارنة وفيه بعض الاسهاب ، وثانيها أمثال قصيرة . ومن النوع الأول جملة صالحة جاءت باسلوب في غاية السمو والروعة ، وقد تضمنت من الحكم الاجتماعية والعظات الأخلاقية ما يتناسب مع اسلوبها السامي الرائع نورد منها الأمثلة التالية :

١ — أنزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية او متاع زبدٌ مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جُفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال الرعد ١٧

٢ — ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . تؤتي أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها

ما لها من قرار ... ابراهيم ٢٤-٤٥

٣ — الله نور السماوات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كانها كوكب درّي يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم ... النور ٣٥

وهذه أمثلة من النوع الثاني مع التنبيه على انها لم ترو من قبل القرآن كأمثال ، وانما تداولها الناس أمثالاً بعد نزولها لما فيها من الحكمة البالغة والمعنى النافذ الذي تكون الجملة المأثورة به مثلاً سائراً :

١ — قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ...	البقرة ٢٦٠
٢ — فبهت الذي كفر	» ٢٥٨
٣ — قضي الأمر الذي فيه تستفيان	يوسف ٤١
٤ — أضغاث أحلام	» ٤٤
٥ — حاجة في نفس يعقوب	» ٦٨
٦ — إن كيدكن عظيم	» ٢٨
٧ — إن بعض الظن أثم	الحجرات ١٢
٨ — مثله كمثل الحمار يحمل أسفاراً	الجمعة ٥

ولم نطلع على ما يساعد على القول بثقة او جزم ان في القرآن امثالاً قصيرة مما كان سائراً قبل البعثة ؛ مع ان مما لا يكاد يحتمل شكاً أنه كان منها شيء كثير ، تسلك به في سلك الفنون اللغوية والأدبية العربية قبل البعثة ، وهو الذي جعلنا نسوغ ذكر الامثال في هذه السلسلة .

وننبه على شيء مهم وهو ان علماء اللغة ساروا على وتيرة واحدة حينما يذكرون الأمثال كفن من فنون اللغة ، وذلك بالاكتفاء بالنوع القصير ، في حين أن القرآن قد احتفى بالنوع الأول حفاوة كبيرة ، واختصه بالتنويه والاشارة ، اذ كل ماجاء واحد منه ذكر قبل البدء او بعد الانتهاء منه أنه مثل وان الله كذلك يضرب الأمثال او ما في معنى ذلك كما رأيت في الأمثلة التي نقلناها . وما دام القرآن هو

اصدق وأوثق صورة للغة العربية في عصر النبي (ص) وبيئته فقد كان ينبغي ان لا يغفل هذا النوع من الأمثال كفن من فنونها .

— ١١ —

ومن هذه الفنون « القصة » او « القصص » . وفي القرآن قصص كثيرة عن الأنبياء السالفين وأممهم وما جرى لهم وعن غير الانبياء (ص) ايضاً بأسلوب جميل نورد منها بعض الأمثلة مما لم يرد في العهد القديم والعهد الجديد (اسفار التوراة والانجيل) :

١ — وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين او امضي حقبا . فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا . فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . قال ارأيت إذ أوينا الى الصخرة فاني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا . قال ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصاً . فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما . قال له موسى هل أتبعك على ان تعلمني مما علمت رشدا . قال انك لن تستطيع معي صبراً . وكيف تصبر على مالم تحط به خبراً . قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا اعصي لك امراً . قال فان اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً . فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق اهلها لقد جئت شيئاً إمراً . قال ألم اقل إنك لن تستطيع معي صبراً . قال لاتؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من امري عسراً . فانطلقا حتى اذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً . قال ألم اقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً . قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً . فانطلقا حتى اذا أتيا اهل قرية استطعما اهلها فأبوا ان يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد ان ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه اجراً . قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً . اما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فاردت أن اعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً . وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً . فأردنا ان يبدلهما ربهما

خيراً منه زكاة واقرب رُحماً . واما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان ابوهما صالحاً فاراد ربك ان يبلغا اشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن امري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً ... الكهف ٦٠-٨٢

٢ — وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون . حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت عليّ وعلى والديّ وان اعمل صالحاً ترضاه وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين . وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين . لأعذبنه عذاباً شديداً او لأذبحنه او ليأتيني بسلطان مبين . فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والارض ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم . قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . إذهب بكتابي هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت يا ايها الملأ اني ألقي إليّ كتاب كريم . إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين . قالت يا ايها الملأ افتوني في امري ما كنت قاطعة امراً حتى تشهدون . قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر اليك فانظري ماذا تأمرين . قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا أعزة اهلها أذلة وكذلك يفعلون . واني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون . فلما جاء سليمان قال أتمدونني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل انتم بهديتكم تفرحون . إرجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون . قال يا ايها الملأ ايكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك واني عليه لقوي امين . قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني

أعشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربي غني كريم . قال نكّروا لها عرشها ننظر أتهتدي ام تكونُ من الذين لايهتدون . فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين . وصدّها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين . قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لُجة وكشفت عن ساقيها قل إنه صرح ممرد من قوارير . قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ... النمل ١٧-٤٤

وفي سورة يوسف انموذج رائع للقصة القرآنية التامة ايضاً مع التنبيه انها جاءت من حيث التفصيل والحوادث مقاربة كثيراً لما جاء عنها في التوراة . ولم ننقلها تفادياً من التطويل ، ويحسن بالقاريء ان يقرأها في المصحف بتمعن ليرى جمالها وروعتها .

ونلفت النظر الى مافي القصتين اللتين نقلناهما وما في قصة يوسف (ص) من حوار شائق ومن عبر بالغة ، ومن عظات حكمية تخللت حوادث القصة وسردها واسبغت عليها لوناً بديعاً .

- ١٣ -

وهناك ناحية فنية اخرى من اللغة العربية في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة تتمثل في القرآن ونعني بها النحو والصرف والاشتقاق ، حيث احتوى جملة صالحة بل الجملة الصالحة فيها ، ولعل اتصال هذه الناحية بلغة اهل عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة أشد وضوحاً من جهة ومما لايحتمل اي توقف او سؤال من جهة اخرى ، لأن مما لايحتمل أي ريب ان ما احتواه القرآن هو صورة لقواعد نحو وصرف واشتقاق كان مستعملاً قبل نزول القرآن وطابعاً مستقراً للغة العربية التي نزل بها ، وفيه دلالة قوية على ماوصلت اليه هذه اللغة من هذه الناحية من الدرجة الرفيعة والنضوج التام الذي كان وما زال مثار إعجاب الباحثين ودهشتهم ، سواء في كمال دقتها وحروف جرها ومعانيها وإعرابها ، او في تنوع أوزانها وجموعها وصفاتها وصيغها بحيث لم تصل الى درجتها اي لغة مع ملاحظة ان هذا كان منذ الف واربعمائة سنة ونيف على اقل تقدير : وطبيعي ان هذا المظهر الرفيع العجيب يصح ان يكون دليلاً

على ذهنية حية جوالة ونشيطة ، وعلى ذوق فني بديع . ولا نرى في هذا مايحتاج الى امثلة او تحمله هنا . لأنه الاساس الشائع العام في اللغة القرآنية واللغة العربية الفصحى المتعارف عليها والتي تجري في مجرى الأولى بوجه عام .

وننبه في هذه المناسبة على مافي تطبيق الصرف والنحو والاشتقاق القرآني وما يعرف بغريب القرآن على الشعر العربي الجاهلي حسب ماجرى عليه علماء اللغة والمفسرون وجعل القرآن تابعاً من هذه الناحية لهذا الشعر من خطأ وبعد عن الصواب . فالقرآن لاغيره هو الذي وصل الينا مدوناً سليماً ، والقرآن لاغيره هو الذي يصح ان يكون مرجع القاعدة اللغوية الصحيح الصادق ، وما يمكن ان يكون فيه شذوذ عن قاعدة مطردة فيه فانه من قبيل المستثنيات التي توجد في كل لغة حية . والشعر الجاهلي الذي يجعل اصلاً للقاعدة لم يصل مدوناً الى عهد التدوين ، وكثير منه مصنوع بعد الاسلام لأغراض متنوعة لعل منها التعالم في هذا التطبيق نفسه ...

— ١٣ —

ومما يدخل في هذه الناحية اللغوية التعريب ؛ وهو مما يتمثل في القرآن ايضاً ، حيث احتوى جملة من الالفاظ المعربة أعلاماً وأجناساً عن الرومية والحبشية والفارسية والعبرية وغيرها مثل ابراهيم واسماعيل واسرائيل ويوسف ويعقوب وسليمان وداوود وعيسى وموسى وجالوت وطالوت وجبريل وميكال ؛ ومثل درهم ودينار وسجيل واستبرق وربيين وحواريين وسرادق ومشكاة وكافور وزنجبيل وسندس الخ ... والتعريب يدلنا اولاً على أن العرب قبل البعثة قد اخذوا كثيراً من الألفاظ الأجنبية التي لم يكن لها مقابل في لغتهم حينما استعملوا او اقتبسوا مسمياتها ، وان هذا كان من اسباب نمو هذه اللغة ، وثانياً على أنهم كيفوا هذه الألفاظ في الأعم الأغلب وكيفوا كذلك الاعلام الاجنبية على اوزانهم وعدلوا وبدلوا في حروفها حتى يتم لهم حسن الاداء والموائمة مع نبرتهم وحروفهم . وفي هذا وذاك دلالة على سعة صدر اللغة العربية ومرونتها وحيويتها في ذلك العهد البعيد وبالتالي على ذهنية جوالة نشيطة ومرنة في الناطقين بها ثم على الصلات الكثيرة بينهم وبين الأمم والبلاد المختلفة المجاورة واقتباسهم منهم كثيراً من وسائل ومظاهر

الحضارة والمعرفة . ولا يرد احتمال تناقض بين نص القرآن بانه لسان عربي مبين ، وبين وجود الفاظ أعجمية الأصل فيه كما هو المتبادر ، لأن هذه الألفاظ قد اندمجت في اللسان العربي بصيغتها ونبرتها المعدلة او المعربة وغدت جزءاً منه قبل نزول القرآن ؛ بل وإن هذا ليلهمنا أن هذه المعربات ترجع الى عهد غير قريب من البعثة ونزول القرآن ، وأن دلالات وجودها التي نبهنا عليها تزداد بذلك قوة ووضوحاً ، هذا مع التنبيه على ان هناك تزيدات وادعاآت قائمة على الغرض او التحكم في صدد الفاظ قرآنية كثيرة .

ولقد ذكر بعض القدماء ان في القرآن الفاظاً اعجمية لم يعرفها العرب قبل نزوله ، وان حكمة نزولها هي كون رسالة النبي (ص) لمختلف الأمم فاقتضى ان يكون في القرآن الفاظ من لغات امم مختلفة ليتسق بذلك مع مدى الآية « وما ارسلنا من رسول إلا بلسان قومه ... ابراهيم ٤ » ، والتهافت في هذا واضح بحيث لا يحتمل نقداً .

— ١٤ —

يضاف الى ماذكرنا من الفنون اللغوية ما يتمثل في القرآن من فنون الكلام الأخرى كالجدل والبرهان المفحم ، وكوصف حالات نفسية في منتهى الروعة والنفوذ الى أدق الاحساسات ، وكوصف مظاهر الطبيعة وسنن الكون وصفاً قوياً أخاذاً يجعل سامعه وقارئه يرى فيه من العظمة والابداع والنظام الدقيق المدهش مايحمله على التسليم بعظمة الباريء عز وجل . وكوصف ماياقي الناس في الآخرة من حساب ونعيم وعقاب وصفاً قوياً رائعاً يكاد سامعه وقارئه كذلك يشعر به أنه أمام مشاهد ماثلة يحسسها بيديه ويراها بعينيه ، مما قد لايعد فناً مستقلاً كالفنون التي افردنا لها ابحاثاً خاصة ، ولكن فيها من القوة والسمو وبلاغة التعبير والأداء والاسلوب مافيه الدلالات الوافية على مبلغ سعة اللغة القرآنية لشتى فنون الكلام بأرقى درجاتها ، وأروع مظاهرها ، وأعمق نفوذها ، وأبلغ تعبيرها ، وبالتالي على مبلغ النشاط الذهني في اهل العصر والبيئة التي تمثلهم هذه اللغة وارتقاء اذواقهم وسعة تفننهم .

والآيات التي تتمثل فيها هذه الفنون كثيرة جداً ، بل هي كل آيات القرآن تقريباً ، ولا بد لمن يريد ان يشعر بها نفسه، ويتذوق مافيها من حلاوة وروعة وقوة خلود من أن يتلوها المرة بعد المرة ، ويقف عند روائعها وقوف المتمعن المستبصر ؛ ولهذا رأينا من التطويل غير الشافي ايراد امثلة هنا ، والاكتفاء بالاشارة الى ارقام بعض مجموعات الآيات . فآيات البقرة (٨-٢٠) مثال رائع لوصف المنافقين و (٧٤) مثال لتصوير مبلغ قسوة قلوب اليهود ؛ وآيات آل عمران (٥٩- ٦٠) مثال للجدل المفحم وآيات الأنعام (٥٩-٦٥ و ٩٥-٩٩) مثال لوصف عظمة الكون وخالقه ، وآيات الأحزاب (١٣-٢٠) مثال لوصف جبن المنافقين في الشدة وسلاطتهم في السعة وآيات ابراهيم (٤٢-٤٧) مثال للتنديد القارع بالظالمين وآيات الحاقة (١٣- ٣٧) مثال لوصف يوم البعث والحساب والجنة والنار ، وآيات المدثر (١١ - ٢٩) مثال للتنديد القاصم بالبغاة ووصف مواقفهم الجحودية الخ ..

- ١٥ -

هذا ، ونختم هذا البحث بالقول إننا لسنا منفردين في ماقلناه عن ما بلغ اليه اهل عصر النبي (ص) وبيئته من بلاغة وفصاحة وبيان ، وتفنن في اساليب القول مما يمكن ان يكون مقياساً على ما كانوا عليه من قوة عقل ورجاحة رأي ، ورقي ذوق ، بل قال هذا غير واحد من المفسرين نذكر على سبيل المثال ما قاله الطبرسي في تفسيره مجمع البيان :

« إن الله خاطب قوماً عقلاء فصحاء ، قد بلغوا الغاية القصوى من الفصاحة ، وتسنموا الذروة العليا من البلاغة » . وما قاله الزمخشري في تفسيره الكشاف :

« إنهم كانوا من صحة التمييز بين الصحيح والفاسد ، والمعرفة بدقائق الأمور وغوامض الأحوال والاصابة في التدبير والدهاء والفطنة بمنزل لايدفعون عنه » .

وما قاله النيسابوري في تفسيره آية (٢٢) من البقرة التي جاء في آخرها « فلا تجعلوا لله انداداً وانتم تعلمون » :

« أي وانتم اهل العلم والمعرفة بدقائق الأمور وغوامض الأحوال ، وهكذا كانت العرب خصوصاً قطان الحرم من قريش وكنانة لايشق غبارهم في الدهاء والفطنة » .

هذا الى أن تقريرات جمهور المفسرين مجمعة على أن لغة القرآن هي من مادة ومفردات وتراكيب وقواعد ومصطلحات بيئة النبي (ص) وعصره . والذي يمكن أن نكون أضفناه هو أننا استدللنا بسمو طبقة القرآن وما فيه من روعة أداء وقوة بيان وتفنن في الأساليب ـ وهي الطبقة الوحيدة التي وصلت الينا عن ذلك العهد سليمة لاشك فيها حرفاً حرفاً وكلمة كلمة ـ على ما كانوا عليه من بلوغ الغاية القصوى من الفصاحة ، وتسنم الذروة العليا من البلاغة ، وما هو من المعقول ان يكون وراء هذا من عقل راجح ، وفكر ثاقب ، وفطنة ودهاء ، وذوق ونشاط ذهني بعيد المدى .

ـ ١٦ ـ

ونقول استطراداً إن بيئة النبي (ص) وعصره لم يكونا ليخرجا عن الظاهرة الطبيعية العامة المعروفة من وجود لغة تخاطب ولغة أدب وكتابة الى جانب بعضها فيها . ويستأنس على هذا بأسلوب الأحاديث النبوية وأحاديث الصحابة وأحاديث العرب المروية ومقايسته بالأسلوب القرآني . فالأحاديث كانت احاديث مجالس اعتيادية في الأغلب ، وهي دون طبقة اللغة القرآنية نظماً وسبكاً وأناقة وابداعاً كما لايخفى . ويستأنس على هذا ايضاً بما هو مروي من سجع الكهان ومأثورات العرافين ، وخطب خطباء العرب وشعر شعرائهم المشهورين ، مما هو أرق سبكاً وأناقة وابداعاً كذلك مما هو مروي من لغة الأحاديث بصورة عامة ، مع تحفظنا وتوقفنا ازاء كثير مما يروى من هذا وذاك .

ومع ذلك فهناك ظاهرة عجيبة لما كانت عليه اللغة العربية من رقي ونضوج يتجليان في أنه لايكاد يوجد فرق مهم بين مفردات وتراكيب لغة التخاطب والحديث وبين مفردات وتراكيب اللغة الأدبية والكتابية الراقية اولاً وفي اتحاد كلتا اللغتين في قواعد الصرف والنحو والاشتقاق والتعريب ثانياً .

الفصل الثاني

في

العلوم والمعارف ووسائلها

ملاحظة مبدئية — القراءة والكتابة في الاوساط الكتابية ودلالتها ومداها — في مكة — في المدينة — مافي القرآن من مسميات وسائل القراءة والكتابة — كثرة الآيات ودلالتها — تفنيد بعض الروايات — القراءة والكتابة في البدو — هل كان لتعليم الصبيان كتاتيب — اللغات الأجنبية عند الكتابيين — عند العرب غير الكتابيين — اطلاع العرب على الكتب الأجنبية — كلمة العلم في القرآن — فهم العرب لمعناها الفني — تحفظ لابد منه — المعارف التاريخية عند العرب وتحليلات واستدلالات قرآنية — مدونات تاريخية وقصصية عند العرب — المعارف الجغرافية عند العرب واستدلالات قرآنية — المعارف الفلكية واستدلالات قرآنية — المعارف الطبية — علم الأنساب — مهاب الرياح — القيافة — معارف العرب الزراعية والحسابية — كلمة اجمالية — صلة الكهانة والسحر بموضوع الفصل — مركز الكهان عند العرب — تعبير الكاهن في القرآن — صورة الكاهن عند العرب وسبب نسبتهم الكهانة الى النبي (ص) الكهانة طور من اطوار العقل العربي — السحر والسحرة في القرآن — الصورة التي تاهمها الآيات القرآنية — كلمة الحكمة في القرآن ومعانيها — مفهومها عند العرب — حكماء العرب ولقمان الحكيم في القرآن.

القراءة والكتابة

— ١ —

من الحق ان يلاحظ قبل كل شيء في صدد ما يتناوله هذا الفصل أن القراءة والكتابة والعلوم والمعارف التي تتصل بها ، والتي لا بد منها لها بالنسبة الى بيئة النبي (ص) وعصره قبل البعثة بصورة خاصة ، والى طبيعة ذلك العهد في مختلف

انحاء العالم المتحضّر بصورة عامة هما اقل مدي بالنسبة الى عصرنا ؛ سواء من حيث الانتشار والاقبال ، أو الوسائل والاشكال ، او النطاق والامكانيات ، او النفع والانتفاع ، أو الحاجة والضرورة ؛ وان من الواجب التحفظ في اعتبار درجة انتشارها في بيئة ما من البيئات القديمة مقياساً صحيحاً من مقاييس الثقافة العقلية فيها على اطلاقه كما هو شأنها في عصورنا التي يسّرت الطباعة ونظام المدارس الحديثة فيها القراءة والكتابة وزيادة المعرفة الانسانية لمختلف الطبقات والبيئات ، وصارت القراءة والكتابة بحق من مقاييس القيم الثقافية . ونذبه على اننا لا نعني بهذا التحفظ تقليل شأن القراءة والكتابة في العصور والبيئات القديمة بل قد يكون شأنها بسبب طبيعة هذه البيئات والعصور ذا خطورة خاصة ، وقد يكون لدرجة انتشارها في بيئة ما سعة وضيقاً معنى غير يسير في الدلالة على نشاط وحيوية وثقافة هذه البيئة .

— ٢ —

هذا والكلام في موضوع القراءة والكتابة مصبوب بطبيعة الحال على البيئة النبوية عامة ؛ وما دام انه كان في هذه البيئة كتابيون وأميون = غير كتابيين = ومن الكتابيين من كان عربياً ومن كان أعجمياً فمن المعقول ان يقال كلمة عن القراءة والكتابة في أوساط هؤلاء ولو أنهم اقلية من جهة ، وان المطلوب معرفة قواد العقلية هم العرب في الدرجة الاولى من جهة أخرى . على ان لمعرفة مدى انتشار القراءة والكتابة في هذه الاوساط ضرورة وفائدة على كل حال . فمن الكتابيين من هم عرب نصارى ويهود ، ودرجة معرفتهم الكتابة والقراءة مما يصح ان يتناولها الكلام ، وان تدخل في مدى التدليل على القوة العقلية العربية ؛ عدا انها تصح أن تعد من المؤثرات في غير الكتابيين من العرب لا سيما اذا كانت واسعة قوية . وهذه النقطة الاخيرة واردة بالنسبة للكتابيين من غير العرب الذين كانوا يعيشون في الوسط العربي ، ويندمجون في مختلف صفحات حياته الاجتماعية والثقافية والمادية .

وفي القرآن آيات كثيرة تدل دلالة صريحة على أن القراءة والكتابة كانتا منتشرتين في الكتابيين بوجه عام ، وفي الكتابيين اليهود بوجه خاص بمقياس

يصح أن يقال عنه إنه كان واسعاً بعض الشيء .

وانت اذ تقرأ ماجاء في الآيات المكية التي هي في الذين كانوا منهم في مكة مثل آيات الانعام ٢٠ و ١١٤ والأعراف ١٥٧ ويونس ٩٤ والرعد ٣٦ والاسراء ١٠٧ — ١٠٨ والنحل ٤٣ والحج ٥٤ والقصص ٥٢ — ٥٥ والعنكبوت ٤٦ — ٤٧ والشورى ١٤ والشعراء ١٩٧ والاحقاف ١٠ والنمل ٧٦ التي نقلناها في الفصل الثالث من الباب الاول ، وتتمعن كذلك في آيات النحل (١٠٣) والفرقان (٤ — ٥) التي نسب الكفار فيها الى الكتابيين تعليم النبي (ص) ما يتلوه من قرآن يحصل عندك ترجيح بان اكثر الكتابيين في مكة كانوا يقرأون ويكتبون . ولقد انتهى بحثنا فيهم الى انهم لم يكونوا جالية جنسية واحدة وكبيرة وانما كانوا افراداً قليلين من متنوع الأجناس ، ومنهم من كان حديث عهد ، ومنهم من جاب جلباً لمزية ما فيه ؛ وهذا كله قد يدعم ما تلهمه الآيات من أن اكثرهم يقرأ ويكتب.

اما اللغة التي كانوا يقرأونها ويكتبونها فليس من الممكن الجزم بها ، غير ان من ما يصح تخمينه ان الاسرائيليين القلائل كانوا يكتبون ويقرأون العبرانية وان النصارى الاجانب كانوا يقرأون ويكتبون لغاتهم او لغة الأنجيل الذي نرجح انه كان بالسريانية واليونانية — اللاتينية ، وهاتان اللغتان كانتا شائعتين في ذلك الظرف في الشام والعراق ومصر . على أن هذا لا يعني ان هؤلاء الاجانب لم يكونوا يقرأون ويكتبون العربية ؛ فاننا لا نستبعد ان لم نقل نرجح ان منهم وخاصة القديمين من كان يقرأها ويكتبها ايضاً ، أما الكتابيون العرب فنرجح انهم كانوا يكتبون ويقرأون العربية ، ، وان منهم من كان يقرأ ويكتب لغة الانجيل . ولقد ورد في حديث بخاري ان ورقة بن نوفل قد تنصر وكان يكتب العبرانية .

— ٣ —

اما الكتابيون في المدينة ومعظمهم اسرائيليون فالآيات النازلة فيهم مثل آيات البقرة ٤١ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٩ ، ٩١ ، وآل عمران ٧٨ ، ٩٣ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٩ والنساء ٤٤ ، ٤٧ ، ١٥٦ ، ١٦٢ والمائدة ١٥ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٦٨ والجمعة ٥ التي نقلناها كذلك في الفصل الثالث من الباب الاول تسوغ ترجيح

كون الكتابة والقراءة منتشرتين فيهم ايضاً بنطاق غير ضيق ، ولكنه اضيق من نطاق انتشارهما في كتابيي مكة . ففي آية البقرة ٧٨

« ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني ، إن هم إلا يظنون »

قرينة قوية على صحة هذا التحفظ حيث تقرر ان من اليهود من لم يكن يحسن القراءة والكتابة . وفي طبيعة الكيان الاسرائيلي المؤلف من جاليات كبيرة نازحة من عهد غير قصير نزوحاً عائلياً ، فيها الكبار والصغار والرجال والنساء والزراع والعمال دليل آخر على صحته ايضاً .

والمرجح ان لم نقل المحقق أن الاسرائيليين الذين كانوا يقرأون ويكتبون انما كانوا يقرأون ويكتبون العبرانية في الدرجة الأولى فهي لغتهم القومية والدينية . وحديث البخاري عن ورقة بن نوفل ، وحديث آخر ذكر فيه ان النبي (ص) أمر زيداً بن ثابت بتعلم العبرانية وهو من الانصار دعامات لهذا الترجيح . على اننا نرجح كذلك ان منهم من كان يقرأ ويكتب العربية ايضاً .

واما بالنسبة لغير الاسرائيليين من الكتابيين فما قلناه عن الاجانب والكتابيين في مكة يطرد هنا بتمامه على ما هو المتبادر .

— ٤ —

والآن ننقل الكلام على القراءة والكتابة بين اهل الحجاز العرب غير الكتابيين وهم اكثرية السكان الساحقة ؛ بل هم المقصودون في الدرجة الاولى من تعبير اهل عصر النبي (ص) وبيئته فنقول إن القرآن قد احتوى آيات عديدة ذكرت فيها ادوات الكتابة والقراءة من كتب وقرطاس ورق وصحف وأقلام ومداد وسجلات كما ترى في الآيات التالية :

١ — ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين . الانعام ٧

٢ — قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً . الانعام ٩١

٣ — وكل انسان الزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه

منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا... الاسراء ١٣ — ١٤

٤ — أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه ... الأسراء ٩٣

٥ — قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ... الكهف ١٠٩

٦ — يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ... الانبياء ١٠٤

٧ — ولو أن مافي الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ... لقمان ٢٧

٨ — والطور . وكتاب مسطور . في رق منشور ... الطور ١ — ٣

٩ — ن . والقلم وما يسطرون ... القلم ١ — ٢

١٠ — بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشّرة ...(١) المدثر ٥٢

١١ — إن هذا لفي الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى ... الأعلى ١٨-١٩

١٢ — اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الأنسان من علق . اقرأ وربك الاكرم . الذي علم بالقلم ... العلق ١ — ٤

ونشبه على ان هذه الآيات جميعها مكية ، ومن تحصيل الحاصل أن نقول إن أهل مكة الذين كانوا اول من سمعوها كانوا يفهمون مدلولاتها .

ولقد وردت كلمات الكتابة ومشتقاتها في القرآن نحو ثلاثمأه مرة ونيف وكلمة القراءة ومشتقاتها نحو تسعين مرة ونيف بأساليب متنوعة كما ترى في الامثلة المكية التي اخترناها لتدل على المعنى الذي يتناولها الكلام مباشرة :

١ — فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ... يونس ٩٤

٢ — وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة واصيلاً ... الفرقان ٥

---

(١) هذه الآية في آيات تنديدية بالمشركين لاعراضهم عن سماع التذكير والدعوة النبوية ، فكأنما تقول انهم معرضون لأن كلاً منهم يريد ان تنزل عليه صحيفة خاصة يقرأها .

٣ ــ ولو نزلناه على بعض الأعجمين . فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ...
الشعراء ١٩٨ - ١٩٩

٤ ــ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ... العنكبوت ٤٨

٥ ــ وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما ارسلنا اليهم قبلك من نذير ...
سبأ ٤٤

ويجب ان تضاف الى هذه الآيات ،الآيات التي نقلناها قبل قليل ايضاً لأنها من من بابها من حيث الدلالة .

— ٥ —

واذا كانت الآيات المدنيـة التي ذكرت فيها كلمات القراءة والكتابة ومشتقاتها بكثرة هي حول اهل الكتاب واليهود خاصة على الاكثر فان فيها ماهو موجه الى المسلمين الذين كانوا عرباً من اهل بيئة النبي (ص) وفي صدد تعليم متصل بالحركات التجارية والحسابية الجارية ونعني بها آية الدين (٢٨٢) الطويلة من سورة البقرة .

فورود هذه الآيات الكثيرة في القرآن تحتوي اسماء وسائل وادوات القراءة والكتابة ، وتحتفي بالقراءة والكتابه هذه الحفاوة الكبيرة دليل راهن على ان العرب في بيئة النبي (ص) وعصـــره قد عرفوا تلك الوسائل والأدوات واستعملوهـا وعلى ان القراءة والكتابة فيهم كانتا منتشرتين في نطاق غير ضيق ، فكثرة الترديد تدل على الألفة ، وهذه لاتكون إلا حيث يكون المألوف ذائعاً ذيوعاً غير يسير .

واذا لاحظنا ان أولى آيات القرآن نزولاً على ماعليه الجمهور ويلهمه مضمونها هي آيات سورة العلق الاولى التي نوه فيها بالقراءة والكتابة « اقرأ باسم ربك الذي خلق ــ والذي علم بالقلم » باسلوب يدل على حفاوة عظيمة ، وان ثانية آيات نزلت بعدها على ماعليه كثير من الرواة هي آيات سورة القلم الاولى التي اقسم الله فيهـا بالقلم والكتابة (والقلم وما يسطرون) مما يدل كذلك على حفاوة بالغة ازداد قولنا قوة وتأييداً .

ولعل في آية الأنعام (٧) وفي آية الاسراء (٩٣) بنوع خاص قرائن قوية ايضاً ،فالآيتان قد جاءتا في معرض التحدي والتنديد ، وبصيغة الجمع ، واسلوب آية

الاسراء اسلوب الاليف للقراءة والكتابة ؛ ومن أقوى القرائن آية المدثر (٥٢) اذا ما امعن في مضمونها ومداها، ومثل هذا يقال بالنسبة لآيات الاسراء (١٣-١٤) التي تفرض جميع الناس يقرأون ويكتبون ولو كان الكلام في صدد مشاهد الآخرة .

هذا من جهة ومن جهة اخرى فان مكة مدينة تجارية ، وكانت رحلات تجارها متوالية الى بلاد كانت على حظ غير يسير من الحضارة كالشـــام ومصر والعراق وفارس واليمن ، ومن المعقول ان يكون هؤلاء الغـادون الرائحون قد تأسوا بما رأوه هناك من ذيوع الكتابة والقراءة ووسائلها فشجعوا على اذاعتها في بيئتهم. هذا الى ما كانت طبيعة مشاغلهم التجارية تقضي به من القراءة والكتابة والاعمال الحسابية؛ فان هذا ايضاً مما يدعي ان يكون حملهم على التشجيع والاذاعة . ويلفت النظر خاصة الى آية البقرة (٢٨٢) وما فيها من الحث على العناية بتسجيل الاعمال التجـارية وعقود الديون ، فان هذا يلهم انه كان من الممكن تنفيذ مايحث السامعون عليه . واستعداد البيئة له بمقياس غير ضيق ، عدا مايلهم ذكر الكاتب على الوجه الذي جاء في الآية بأسلوب حفي من وجود طبقة مخصوصة تحترف الكتابة والتسجيل وكتابة العقود التجارية ، وما في هذا من دلالة على سعة الاعمال التجارية واقتضائها وجود مثل هذه الطبقة .

ثم ان القرآن المكي ضعف القرآن المدني تقريبـاً ، وكانت آياته تكتب في الصحف ويتداولها المسلمون في بيوتهم يقرأونها وينسخونها ، فاذا كان من المحتمل ان اكثر رجال المسلمين في مكة[1] او ان كثيراً منهم كانوا يقرأون ويكتبون وهم أقلية ضئيلة بالنسبة لأهل مكة فيكون من المعقول ان عدد الذين يقرأون ويكتبون في مكة كان كبيراً ؛ لاسيما وان اكثرية الطبقة البارزة من زعماء ووجهاء وتجـار

(١) ان حادثة اسلام عمر بن الخطاب (رض) التي ذكرها ابن هشام في الجزء الاول ص ٣١١ من سيرته والصحيفة القرآنية التي وجدهـا في يد شقيقته فاطمة وهي من الحوادث المعروفة المروية كثيراً تدل على ان من النساء المسلمات من كن يقرأن ويكتبن قبل البعثة . أما الروايات التي تذكر النساء المسلمات القارئات الكاتبات بعد الهجرة فكثيرة . وليس من ريب ان هذا استمرار لما سبق من ناحية ما .

واغنياء لم تكن في عداد المسلمين ، وهؤلاء او اكثرهم مظنة القراءة والكتابة . بل إن هناك من الروايات مايدل على اكثر من هذا ذكرها المفسرون وكتاب السيرة(١) في سياق تفسير آيات الأسرى ٦٧ — ٧٠ في سورة الأنفال حيث ذكر فيها أنه كان بين الأسرى فقراء لايملكون فداء ، فجعل النبي فداءهم أن يعلم الواحد منهم عشرة من اطفال المسلمين القراءة والكتابة ، وهذا يعني ان القراءة والكتابة كانتا فاشيتين في اهل مكة بحيث لم يكن الفقراء والمتوسطين خارجين عن نطاقها فضلاً عن طبقة الزعماء والأغنياء والتجار .

يضاف الى هذا وجود تلك الجالية الأجنبية في مكة والتي نسب الى بعض افرادها تعليم النبي (ص) ومساعدته كما سبق القول . فليس من التجوز ان يظن ان من هؤلاء الذين رجحنا أن اكثرهم يقرأون ويكتبون من كان يعلمها للعرب او اطفالهم او اطفال الأغنياء والزعماء الذين كان منهم بعض افراد هذه الجالية رقيقاً عندهم ، وبالتالي من كان يساعد على اذاعتها .

كذلك يضاف الى هذا وجود عرب متنصرين من اهل مكة طارئين ومستقرين فيها مما رجحناه في الفصل الثالث من الباب الأول . ولقد رجحنا قبل قليل غلبة احتمال معرفة هؤلاء او اكثرهم القراءة والكتابة ايضاً ، فليس من التجوز ان يكونوا ممن ساعد على اذاعة القراءة والكتابة في مكة ايضاً .

وعلى هذا كله ايضاً نقرر ان ماذكره بعض المؤلفين القدماء ونقله عنهم بعض المؤلفين الحديثين(٢) من انه جاء الاسلام ولم يكن يكتب ويقرأ في مكة إلا سبعة عشر شخصاً ، وانه لم يكن في جميع اليمن من يكتب ويقرأ ، وان الحروف العربية لم تخترع الا قبيل البعثة النبوية ، وان الافراد القلائل الذين تعلموها من أهل مكة لم يتعلموها الا في هذا الظرف ، وان وسائل الكتابة في عصر النبي (ص) وبيئته لم تكن تعدو لحاء شجر واكتاف عظام ، وقطع جلد ، ورقائق حجارة

---

(١) طبقات ابن سعد ج٢ ص٦١

(٢) الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي ج١ ص١٢٤

الخ انما هو قول جزاف لا يثبت أمام التمحيص والتدبر ، وقد نقضته الحقائق العلمية الراهنة (١) .

— ٦ —

واذا كان جل ما قلناه قد انصب على سكان مكة من العرب فلا يعني هذا أن العرب سكان يثرب وغيرها من المدن الحجازية لم يشملهم الكلام والقرائن القرآنية ، فاللغة المكية هي لغة العرب في هذه المدن ، والدلالات والملهمات القرآنية تنسحب عليهم بطبيعة الحال ولو كان ما نقلناه من الآيات مكياً . على ان في القرآن المدني آيات كثيرة في صدد القراءة والكتابة والكتب لا يصح أن يشك في ان سكان يثرب من العرب كانوا يفهمون دلالاتها ولو كان جلها ورد في صدد الكتابيين عامة واليهود خاصة . ولقد كانت يثرب مقر جالية يهودية كبيرة كان لها كتبها ومدارسها ومعلموها وأحبارها وربانيوها ، ولقد رجحنا أنه كان بين الأسرائيليين من يحسن القراءة العربية ، ولقد رجحنا كذلك وجود كتابيين غير اسرائيليين من عرب وغير عرب ، فهؤلاء يدخلون من جهة في متناول تقرير انتشار الكتابة والقراءة ، ومن جهة اخرى في احتمال مساعدتهم في تعليم واذاعة القراءة والكتابة العربية .

والمدينة بعد مركز تجاري وطريق تجارية ، وليس من المعقول كما هو المتبادر ان يبقى عربها في عزلة عن القراءة والكتابة ، وان لا يكونوا قد احتاجوا اليهما وتأسوا فيها بمن بينهم قبل البعثة ؛ ولهذا فنحن لا يسعنا ان نسلم بصحة رواية ابن سعد (٢) في سياق اشتراط تعليم أسرى قريش لابناء المسلمين من أن أهل مكة كانوا يكتبون وأهل المدينة لم يكونوا يكتبون . واشتراط تعليم أسرى قريش

---

(١) في احد فصول تاريخ الأسلام المستشرق الطلياني كايتاني بحث مسهب في نشأة الخط العربي اثبت فيه بالدلائل المادية والاستكشافية الحاسمة ان الخط العربي قديم الوضع والذيوع في مختلف أنحاء جزيرة العرب والشمالية منها خاصة ومنها الحجاز وفي مقدمة تفسيرنا بحث واف انتهينا به الى التقرير الاستدلالي بان القرآن كان يدون على رقوق وصحف وقراطيس .

(٢) ج ٢ ص ٦١

لابناء المسلمين الأنصار ليس برهاناً على عدم انتشار القراءة والكتابة في المدينة ، ففي كل بيئة مهما كانت القراءة والكتابة فيها فاشيتين يوجد اطفال كثيرون حرموا من فرصة التعلم لسبب ما . وهذا الواقع يفرض في بيئة النبي (ص) وعصره بقوة اكثر ؛ هذا عدا أن المهاجرين لم يكونوا جمهرة كبيرة في ظروف وقعـــة بدر ، وكثير منهم هجر مكة وفيها افراد من عائلته بل ومنهم من تخلف نساؤه عنـه كما تلهمه آيات الممتحنة ١٠ — ١١ : التي تنهي المسلمين عن التمسك بعصم زوجاتهم الكافرات وتأمر بالتعويض على الأزواج المسلمين الذين فاتتهم زوجاتهم الى الكفار :

١ — ولا تمسكوا بعصم الكوافر ... ١٠

٢ — وأن فاتكم شيء من أزواجكم الى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا ... ١١

ولهذا كله يصح القول إن الكتابة والقراءة في يثرب والمدن الحجازية الاخرى كالطائف وجده كانتا كذلك منتشرتين ، وان كان مما يصح ان يكون انتشارهما في مكة ويثرب اوسع منه في غيرها .

اما البدو او الأعراب فاننا نميل الى القول ان الكتـابة والقراءة فيهم لم يكن لها نصيب من الشيوع . ولا يمنع هذا ان يكون بعض افراد في أنحـاء الحجاز المختلفة قد الموا بهما إلماماً ساذجاً . وفي روايات السيرة ما يستأنس به على صحة هذا القول ؛ حيث ذكرت إن بعض نابهيهم قابل النبي (ص) في احد المواسم وكان معه ما سماه مجلة لقمان (١) .

— ٧ —

ونود أن نتساءل عمـا اذا كانت القراءة والكتابة في المدن الحجازية تعلمان للصبيان في مدارس او كتاتيب ؟ ونميل الى الايجـاب في الجواب وإن لم يكن في القرآن ما يثبت هـذا او ينفيه . فان عدداً من شباب المسلمين المكيين عرفوا بانهم يقرأون ويكتبون . ونعرف كذلك أن كتاب النبي (ص) كانوا من الشباب سواء

(١) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٤٨ الطبعة الاخيرة للبابي

منهم المكيون او المدنيون . فمعاوية بن ابي سفيان مثلاً كان حدثاً يوم الفتح — اذ ذهب مع جيوش الفتح وهو فتى ، وتولى حكم الشام وهو شاب ؛ وقد هاجر الى المدينة بعد الفتح وكان من كتاب النبي (ص) ؛ ونستطيع ان نذكر عدداً غير قليل مثله اذا اردنا الاستقصاء ، فهذه الطبقة تعلمت الكتابة والقراءة في سن الحداثة على ما هو المتبادر ، وليس من المستبعد أن تكون قد تعلمت على يد معلمين بصورة جمعية وهذا معنى الكتاب او المدرسة مهما كان الشكل .

ولقد ذكرت كتب التراجم أن والد الحجاج بن يوسف امير العراق كان معلم كتاب في الطائف (١) ، والحجاج ولد في اواخر عهد الخلفاء الراشدين ، وربما كان كتاب ابيه إذا صحت الرواية في عهد عمر بن الخطاب (رض) او قبله بمدة ما . وليس من التجوز ان يقال انه لم يخترعه وان يكون استمراراً من عهد ما قبل البعثة ، حتى ولو لم تصح الرواية في ذاتها وأريد بها غمز أصله او أرومته فانها تدل على ان هذا النوع من الكتاتيب كان موجوداً ومعروفاً في عهد ابي الحجاج ، وهو مقارب لعصر النبي (ص) إن لم يكن نفس العصر . واننا نرجح ان الكتاتيب والمدارس كانت معروفة في بلاد الشام ومصر التي كانت تحت سيادة الرومان الذين لا نشك في انهم كان لصبيانهم مدارس وكتاتيب يتعلمون فيها وفي انهم اقاموا مثلها في هذه البلاد ؛ ومن المحتمل ان يكون تجار الحجاز وزعماؤها الذين كانوا يترددون على هذه البلاد قد اقتبسوا ذلك في جملة ما اقتبسوه . ونرجح أن الجالية اليهودية الكبيرة في يثرب قد انشأت لصبيانها مثل ذلك ؛ وندعم ترجيحنا بجملة جاءت في احدى آيات آل عمران خطاباً لليهود :

ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ... ٧٩

حيث تلهم مهما كانت في صدد آخر انه كان لليهود نوع من المدارس يعلم أحبارهم وربانيوهم فيها الكتاب . ولا نستبعد ان يكون للجالية الكتابية في مكة مثل ذلك ، ولعل ما في الشام ومصر منه هو الاصل الذي نقل عنه كتابيو الحجاز وجالياتهم ، ولعل بعض هؤلاء الكتابيين والعرب او المستعربون منهم خاصة كانوا

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٢٧ — ٢٨

قد ساعدوا اهل المدن الحجازية في انشاء هذه المدارس او تولوا تعليم أبنائها فيها .

— ٨ —

ويخطر بالبال سؤال آخر وهو ما اذا كان بعض اللغات الاجنبية منتشراً في عصر النبي (ص) وبيئته بين العرب ، ولم نتساءل عن انتشار شيء من اللغات الاجنبية بين الكتابيين غير العرب لأن هذا في اعتقادنا لا تحمل شكا ، وآية النحل (١٠٣) صريحة بان من كان في مكة منهم كان أعجمي اللسان ؛ وايات الشعراء (١٩٨ – ١٩٩) ايضاً قوية الايحام بانه كان في مكة أناس عجم اللسان . والآيات العديدة المدنية الواردة في بني اسرائيل والتي تشير الى ما كان بين أيديهم من كتب يقرأونها ويتدارسونها وفي الروايات العديدة التي ذكرت ان النبي (ص) أمر بعض الشبان المسلمين في المدينة بتعلم العبرانية ، وأن النبي (ص) في بعض مواقف الحجاج اليهودية أمر اليهود باحضار التوراة وكلف احد مسلميهم عبد الله بن سلام بقراءتها ، وعدم ورود أي رواية أو خبر عن وجود ترجمة عربية للتوراة اذ ذاك قرائن يصح ان تورد في هذا المقام لتدعيم كون اليهود كانوا يعرفون العبرانية ويتدارسون كتبهم بها في عصر النبي (ص) ، والنقطة الأخيرة تصلح لتدعيم الكتابية الأعجمية في مكة والمدينة ، تقرأ كتبها الدينية وتتدارسها بلغتها .

ونقول في صدد الأجابة على السؤال أنه ليس في القرآن ما يمكن الأستدلال به على معرفة العرب لغة اجنبية بصراحة . غير ان وجود عرب كتابيين في مكة والمدينة على ما رجحناه في بحث سابق ، وعدم ثبوت ترجمة عربية للتوراة والانجيل يجعل القول باحتمال إلمام هؤلاء الكتابيين أو بعضهم بلغة كتابهم الديني سائغاً . واذا كان من المعقول ان يدخل كتابيو العرب في الحجاز في متناول الآيات القرآنية التي تذكر أهل الكتاب وأهل العلم وأهل الذكر وكتبهم وقراءتهم ودراستهم ، وقولهم حينما كان يتلى عليهم القرآن أنهم كانوا من قبله مسلمين وانه الحق من ربهم ومصدق لما بين ايديهم من الكتب الخ مما نقلناه في الفصل الثالث من الباب الأول فيكون احتمال معرفة الكتابيين العرب او أفراد منهم لغات اجنبية وارادا وصحيحاً

بالاستلهام القرآني ايضاً ، وبالاضافة الى هذا الاحتمال فانه من المحتمل ان يكون هؤلاء قد تعلموا هذه اللغات في مكة والمدينة من الكتابيين الاجانب فيهما . ولقد جاء في حديث بدء الوحي الذي رواه البخاري عن عائشة (رض) ان ورقة بن نوفل كان قد تنصر وكان يكتب باللغة العبرانية ؛ فهذا الخبر جدير بان يستأنس به على ما نحن بسبيل تقريره ويدعمه ، والحديث قد ذكر ورقة بمناسبة شخصية ، فليس من التجوز أن يقال انه لم يكن وحده ملماً باللغات الاجنبية من كتابي العرب كما هو واضح .

على اننا لا نظن ان الأمر قد اقتصر على كتابي العرب الحجازيين أو بعضهم ونميل الى الظن بان غيرهم من أهل مكة والمدينة قد ألم قليلاً او كثيراً بلغة اجنبية ما ، فأهل مكة في رحلات تجارية مستمرة ، والبلاد التي كانوا يرحلون اليها وإن كانت محاطة الاطراف بالقبائل العربية فان اللغات الغالبة في مدنها غير عربية ، وقد كانوا يتعاملون فيها ، ومصلحة التعامل والسفر تقضي بالألمام بشيء من لغاتها وهي اليونانية اللاتينة والأرامية السريانية والقبطية والفارسية ، وحلات أهل يثرب وثيقة باسرائيليين يحتفظون بلغتهم العبرانية ؛ وليس من التخرص ان نقول هذا بالنسبة لأهل جدة ايضاً المتصلين بالعالم الخارجي عن طريق الملاحة ، والملاحون دائماً يلمون باللغات الاجنبية بطبيعة مهنتهم كما لا يخفى . ولعل ما في اللغة العربية من كلمات كثيرة معربة عبرانية الأصل او يونانية او فارسية اوحبشية او قبطية من القرائن على ما نقول بوجه عام ، فالذين ينقلون من لغة اجنبية الى لغتهم يعرفون في الغالب معناها او يلمون قليلاً أو كثيراً باللغة التي منها الكلمات .

— ٩ —

هذا ، ويستتبع إلمام العرب باللغات الاجنبية احتمال اطلاع بعض الملمين على الكتب المكتوبة باللغات التي ألموا بها . واذا كان هذا وارداً بل ومستلهماً من القرآن بالنسبة للكتابيين العرب على ما أسلفنا قوله فاننا لا نراه غير وارد بالنسبة للأميين — غير الكتابيين — منهم ايضاً . فالمام بعضهم باللغات الاجنبية ، واتصالهم بمن في أيديهم كتب مكتوبة بهذه اللغات دينية وغير دينية من الكتابيين في الحجاز والبلاد

المجاورة مما هو ميسور وواقعي يجعل احتمال اطلاعهم على هذه الكتب او بعضها قائماً إن لم نقل طبيعياً .

ونعقب على هذا كله فنقول انه من الطبيعي أن يكون لأعلام العرب باللغات الاجنبية في عصر النبي (ص) وبيئته ، واطلاع الملمين على بعض الكتب الدينية وغير الدينية بهذه اللغات الذى نظن أن ما قلناه كاف لترجيح احتمالها دلالة على سعة أفق أهل بيئة النبي (ص) وعصره وحيويتهم ونشاطهم العقلي من جهة وتأثيرها في اذهانهم وثقافتهم من جهة أخرى مهما كانت دائرة ذلك الألمام والاطلاع ضيقة أو محدودة .

العلوم والمعارف

— ١٠ —

في القرآن آيات كثيرة يمكن الاستناد اليها واستلهامها في درس مايمكن ان يكون عند أهل بيئة النبي (ص) وعصره من علوم ومعارف بعد أن تبينا ما عندهم من وسائلها كالقراءة والكتابة والألمام باللغات الأجنبية ، والاطلاع على الكتب الأجنبية .

ويحسن بنا قبل المضي في هذا الموضوع أن نتساءل عما اذا كانت كلمة «العلم» مفهومة اذ ذاك ومستعملة بمعناها الفني المعروف .

إن الآيات القرآنية قد رددت كلمة العلم ومشتقاتها مثل العلماء ، والعالمين ، والذين أوتوا العلم ، والراسخين في العلم . وقوم يعلمون ، والذين يعلمون والذين لا يعلمون ورددت كذلك كلمة « التعلم » ومشتقاتها ؛ ورددت كلمة « الدرس » ومشتقاتها في صدد الكتب الدينية والتعاليم الدينية كثيراً حيث بلغ عدد مشتقات كلمتي العلم والتعليم اربعمائة ونيفاً .

ومن المسلم به ان كلمتي العلم والتعليم ومشتقاتها قد استعملت في معان غير معنى « العلم » الفني المعروف حيث استعملت لاداء معاني : الفهم والتفهيم والمعرفة والاحاطة والادراك والألهام والأيحاء والبيان والتبيين والتأكيد والتصديق واليقين والرؤية والمشاهدة والأحساس والتمرين والشعور والعلم بأمور الدين

والكتب السماوية ، وكانت احياناً تعني الطبقة النيرة والعقلاء وذوي البصائر والأفهام ايضاً مما هو منبث في سور القرآن المختلفة ولا يحتاج الى تمثيل .

غير ان من الحق ان يقال إن هاتين الكلمتين ومشتقاتها قد استعملت في القرآن كذلك في الدلالة على « العلم » و « التعليم » بمعناها الفني المعروف ، سواء أكان ذلك للعلم والتعليم دينياً أم دنيوياً كما يمكن ان يفهم من الآت التالية :

١ — ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون ... البقرة ١٥١

٢ — وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ... البقرة ١٠٢

٣ — إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ... البقرة ٢٤٧

٤ — والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ... آل عمران ٧

٥ — ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون آل عمران ٧٩

٦ — ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه ... الأعراف ١٦٩

٧ — إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي ... النحل ١٠٣

٨ — أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل ... الشعراء ١٩٧

٩ — قال الذي عنده علم من الكتاب ... النمل ٤٠

١٠ — وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ... العنكبوت ٤٣

١١ — إنما يخشى الله من عباده العلماء ... فاطر ٢٨

فاذا صح استشهادنا واستنتاجنا فيكون قد وجد عند العرب هذا المعنى وفهموه قبل البعثة ، لا سيما واكثر هذه الآيات مكية أي انها استعملت قبل ان تتسع الدعوة الاسلامية وتتطور معاني الكلمات او بعضها . واذا كان الامر كذلك فليس من التجوز ان يقال إن الذين كان هذا المعنى في لغتهم واذهانهم بالتبعية موجوداً ومفهوماً لا بد من ان يكونوا ملمين ببعض العلوم ومشاركين فيها بشكل من الاشكال وإن لم يكن قد انتهى الينا شيء كثير وموثوق عن ذلك ، وإن لم يكن قد ورد في

القرآن عنه شيء واضح ومعين . ومع هذا فان في القرآن من الدلالات والارشادات والملهمات ما يساعد على عرض بعض صور وأشكال من العلوم والمعارف عند العرب في عصر النبي (ص) وبيئته كما سترى في الأبحاث الآتية .

على اننا نود قبل البدء في ذلك أن نبدي تحفظاً في اطلاق وجود « العلم » بمعناه الفني المعروف اليوم الذي يتناول طرائق البحث والتمحيص ، ووسائل الدرس والمقارنة وأصولها واساليبها ، ووضع القواعد والدساتير العلمية والفنية الخ حيث نجزم أن العلم عند العرب في ذلك العصر والبيئة لم يكن قد وصل الى هذه الدرجة او المفهوم الفني ، وكل ما نعنيه من ذلك الاطلاق أن من العرب من اطلع على كتب متنوعة ، وتدارس بعض العلوم ، وفقه بعض قواعدها ، ولم يبق من هذه النواحي سماعياً على سجيته البدوية وبصيرته الطبيعية ، ومكتسباته العابرة .

واليك الآن المواضيع العلمية والفنية التي يمكن أن يستلهم من القرآن انه كان للعرب مشاركة او ألمام فيها ضمن النطاق الذي ذكرناه آنفاً :

— ١١ —

في القرآن قصص كثيرة عن الامم الغابرة في جزيرة العرب وفي خارجها فمن الاول :

١) ما يتعلق بسبأ قديماً وحديثاً . القديم منه في سياق قصة ملكة سبأ وما كان لها من ملك ضخم وقوة بأس ورجاحة عقل ، وما كان بينها وبين سليمان (ص) النبي الملك الاسرائيلي (آيات النمل ١٦ — ٤٤) (١) ، والحديث منه في سياق الاشارة

(١) اكتفينا بالاشارة الى الآيات خلافاً لما سرنا عليه لان النصوص القرآنية ليست مقصودة بذاتها هنا للاستدلال . ولما كان موضوع الكتاب هو عصر النبي (ص) وبيئته فاننا لم نر لعرض ما تدل عليه الآيات القرآنية من الحضارة العربية القديمة التي قامت في أنحاء الجزيرة العربية المختلفة . وإلا فالآيات تصح ان تكون مصدراً للتعريف بحضارة وعمران ورفاه وبأس قامت في العهود المتقدمة كثيراً عن عصر النبي (ص) في بلاد اليمن وحضرموت ومدائن صالح وشبه جزيرة سيناء اي في جنوب جزيرة العرب وشمالها ، وكان العرب يتداولون اوصافها واخبارها جيلاً —

الى ما كان من عمران مملكة سبأ بعد ذلك العهد البعيد، وكثرة ما كان فيها من مدن وقرى تكاد تكون سلسلة متصلة الى الحجاز، وما كان فيها من مياه وجنات، ورخاء ونعيم، ثم ما كان من أمر سيل العرم وتقهقر المملكة وعثرة السكان وتمزقهم شر ممزق (آيات سبأ ١٥ — ١٩).

٢) ما تنطوي عليه الاشارات المقتضبة الى تُبَّع مما كان معروفاً ومتداولاً من حكم التبابعة في اليمن (آيات الدخان ٣٧ و قاف ١٤)

٣) ما يتعلق بالأحقاف — القسم الجنوبي الشرقي من جزيرة العرب — منازل عاد، وما كان فيها من عمران ومدن وقرى وزروع وعيون وقوة بأس، ومراصد في ذرى الجبال، وخزانات المياه، وما كانوا عليه من قوة جسمانية الخ وما كان من بعثة هود (ص) فيهم وتدميرهم بالريح الصرصر العاتية. (آيات الأعراف ٦٥ — ٧٢ وهود ٥٠ — ٦٠ والشعراء ١٢١ — ١٣٤ وفصلت ١٥ والأحقاف ٢١ — ٢٦ والقمر ١٨ — ٢٠ والفجر ٦ — ٨

٤) ما يتعلق بمنازل ثمود التي سماها القرآن بالحجر ايضاً، وما كان فيها من عمران وجنات ونخيل وزروع ومياه وما كان لهم من بيوت منحوتة في الجبال، وقصور في السهول، وما كان من بعثة صالح (ص) فيهم ومعجزة الناقة لهم ثم ما كان من عقر الناقة وما حل فيهم من تدمير بالرجفة (الأعراف ٧٣-٧٨ وهود ٦٠ — ٦٨ والحجر ٨٠ — ٨٣ والشعراء ١٤١ — ١٥٢ والنمل ٤٥ — ٥٢ والقمر ٢٣ — ٣١ والفجر ٩)

٥) ما يتعلق بمدين وهي في طرف جزيرة العرب الشمالي الغربي، وما كان

— بعد جيل الى عصر النبي (ص). والآثار التي مازالت الى اليوم في الانحاء المذكورة تؤيد ذلك تأييداً قوياً وعظيماً لانها تدل على قوة وسعة هذه الحضارة بالنسبة للعصور التي وجدت فيها وتدل على ان العرب في عصر النبي (ص) ليسوا بسبيل عهد حضري حديث على الامة العربية، عدا ان ما انشأته الموجات العربية القديمة في العراق والشام ومصر وحضارات يدل على ذلك ويمت اليه ايضاً.

عليه أهلها من ثروة وقوة وحركة تجارية واخذ وعطاء وبيع وشراء وما كان من رسالة شعيب (ص) اليهم وتدميرهم (آيات الأعراف ٨٥ - ٩١ وهود ٨٤-٩٥ والشعراء ١٧٦ - ١٩٠) .

٦) مايتعلق بصلة ابراهيم (ص) بمكة واسكانه بعض ذريته في حرمها وبنائه الكعبة وابنه اسماعيل (ص) ومصلاه الذي عليه علامات واضحة (ابراهيم ٣٥-٤١ والبقرة ١٢٤ - ١٣١ وآل عمران ٩٦ - ٩٧) .

ومن الثاني أي خارج جزيرة العرب ماله صلة بالمذكورين في التوراة ومنه ماليس له هذه الصلة . فمن الأول :

١) نوح (ص) وطوفانه وسفينته (آيات يونس ٧١ - ٧٣ وهود ٢٥ - ٤٨ والمؤمنون ٢٣- ٢٨ والقمر ٩ - ١٦) .

٢) وقصص ابراهيم وقومه (ص) مع قومه وملكهم ونزوحه الى فلسطين ورؤياه ومحاولة تنفيذها وفداء ابنه وذريته الخ . (البقرة ٢٥٨ - ٢٦٠ والأنعام ٧٤ - ٧٨ وهود ٦٩ - ٧٦ ومريم ٤١ - ٥٠ والانبياء ٥١ - ٧٣ والشعراء ٧٠ - ١٠٤ والعنكبوت ١٦ - ٢٥ والصافات ٨٣ - ١١٣)

٣)وقصة لوط (ص) ونزوحه مع ابراهيم وما كان من قومه واخلاقهم السيئة وخسف الله بلادهم والاشارة الى قيام آثارها (الأعراف ٨٠ - ٨٤ وهود ٧٧-٨٣ و ٦١-٧٧ والشعراء ١٦٠-١٧٥ والصافات ١٣٣-١٣٨ والقمر ٣٣-٤٠)

٤) وقصة يوسف (ص) واعوام الجدب في مصر ونزوح آل يعقوب الى مصر (سورة يوسف ٤ — ١٠١) .

٥) وقصص اضطهاد فرعون لبني اسرائيل ونشأة موسى (ص) ودعوته ومعجزاته وموقف فرعون منها وما كان من المناظرة السحرية ومصير فرعون وخروج بني اسرائيل من مصر وتعجيزاتهم وتيههم ومناجاة موسى (ص) ربه وحروب بني اسرائيل وملك داوود وسليمان (ص) والغزوات الخارجية على بني اسرائيل وشتاتهم في الأرض (البقرة ٢٤٦ - ٢٥١ والمائدة ٢٠-٢٦ والأعراف ١٣٠ - ١٣٣ و ١٦٤ - ١٦٩ و ١٣٨ - ١٣٩ و ١٤٢ - ١٤٥ و ١٤٨ والاسراء

٤ – ٧ وطاها ٥٧ – ٧٠ و٧٦ – ٧٧ والأنبياء ٧٨ – ٨٢ والشعراء ١٠ – ٦٨ والنمل ١٥ – ٤٤ والقصص ٣ – ٦ و ٧ ٣٩ وسبأ ١٠ ١٤ وصاد ١٧ – ٢٠ و٢٦ و ٣١ – ٢٩) .

٦) وقصة ايوب (ص) وبلائه وشفائه (الانبياء ٨٣ – ٨٤ وصاد ٤١ – ٤٤)

٧) وقصة يونس (ص) وغضبه من جحود قومه وركوبه السفينة وقذفه منها وابتلاع الحوت له وقذف الحوت اياه ثانية وايمان قومه به بعد ذلك (الصافات ١٣٩ – ١٤٨ والقلم ٤٨ – ٥٠)

ومن الثاني :

١) قصة ذي القرنين وامتلاكه المشارق والمغارب وبنائه سد يأجوج ومأجوج (الكهف ٨٣ – ٩٨)

٢) وموسى (ص) والرجل الصالح وما كان من اعمال هذا التي انكرها عليه موسى (ص) لما فيها من مخالفة ظاهرة للحق والمنطق وتفسيره اعماله له بعد ذلك (الكهف ٦٠ – ٨٢)

٣ – وقصص زكريا ويحيى ومريم وعيسى (ص) المتنوعة وما كان من امر ولادة يحيى (ص) بمعجزة وولادة عيسى (ص) بمعجزة ورسالة عيسى (ص) لبني اسرائيل وايمان الحواريين ، واستنزال المائدة من السماء (آل عمران ٣٢ – ٦٢ والنساء ١٥٦ – ١٥٩ والمائدة ١٠٩ – ١١٨ ومريم ١ – ٤٠ والزخرف ٥٧ – ٦٥ والصف ٦) .

٤) وقصة أصحاب الكهف ونومهم سنين طويلة ويقظتهم ثم موتهم وعدتهم وكلبهم الخ (الكهف ٩ – ٢٦).

٥) وقصة لقمان وحكمته ومواعظه لابنه (لقمان ١٢ – ١٩

ومن الذى له صلة بالأنبياء المذكورين في التوراة مايتطابق مع قصصهم في القرآن قليلاً أو كثيراً او مجملاً أو تفصيلا مع ما جاء في التوراة ومنها ما يتغاير ومنها ما لم يرد في التوراة بالمرة كاكثر قصص ابراهيم (ص) وكقصة موسى (ص) والعبد الصالح .

— ١٢ —

وفي القرآن آيات عديدة حول أخبار الأنبياء ومواقف أممهم منهم بأسلوب يوحي بان العرب الذين كانوا يسمعونها ليسوا غريبين عنها اي انهم كانوا يعرفونها او يعرفون اشياء منها ، كما تلهمه الآيات الآتية :

١ — ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لمّا ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبيّنات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ... يونس ١٣ — ١٤

٢ — وانذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال . وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ... ابراهيم .. ٤٤ — ٤٥

٣ — أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولي النهى ... طاها ١٢٨

٤ — وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى ... طاها ١٣٣

٥ — وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط . واصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم اخذتهم فكيف كان نكير . فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد . أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فأنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور... الحج ٤٢ — ٤٦

٦ — وعاداً وثموداً وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ... العنكبوت ٣٨

٧ — أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها اكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون ... الروم ٩

٨ — وإن لوطاً لمن المرسلين . إذ نجيناه وأهله أجمعين. الا عجوزاً في الغابرين. ثم دمرنا الآخرين . وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ...
الصافات ١٣٣—١٣٨

وفي القرآن آيات عديدة حكي فيها ردود كفار العرب على الدعوة النبوية والنذر القرآنية حيث كانوا يرون فيما يرون بأن مايقال لهم ويتلى عليهم هو اساطير الأولين كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها حتى اذاجاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا الا اساطير الأولين ... الانعام ٢٥

٢ — وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا الا اساطير الأولين ... الانفال ٣١

٣ — وقالوا اساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا... الفرقان ٥

كذلك في القرآن آيات حكي فيها تحدى العرب للنبي (ص) بأن يأتي بمثل ماجاء به الانبياء كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ... الانبياء ٥

٢ — فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون... القصص ٤٨

وفي مقدمة آيات قصة يوسف (ص) آية نصها « لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين » كما ان نزول قصة ذي القرنين كانت بناء على سؤال وجه الى النبي (ص) عنه حيث جاء في مقدمتها هذه الآية « ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً » وفي آيات قصة أصحاب الكهف مايلهم ان نزولها قد كان بناء على خوض في شأنها : « سيقولون ثلاثة ورابعهم كلبهم ويقول خمسة وسادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم مايعلمهم الا قليل فلا تمار فيهم الا مراراً ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً » .

فهذه النصوص توحي بأن الذين كانوا يسمعون مايتلى من آيات القرآن المحتوية اخبار الأمم والانبياء كانوا يعرفون هذه الاخبار اجمالاً أو تفصيلاً ، بل وصل الأمر فيهم الى ان قالوا إن النبي (ص) استكتبها فهي تملى عليه في الصباح والمساء حتى يستظهرها ويتلوها عليهم ، والى ان قالوا إننا نعرف الذي يقوله وانالو نشاء لقلنا مثله لأنه من قصص الأولين واساطيرهم المعلومة ...

ولقد احتوت كتب التفسير شروحاً وبيانات مسهبة حول القصص القرآنية مروية عن الرواة وعلماء الأخبار والصحابة من عرب ويهود مسلمين مما يمكن ان يستأنس بها على انها هي ايضاً مما كان يدور في عصر النبي (ص) وبيئته حول تلك الاخبار والقصص في الأوساط العربية والأوساط الكتابية ، ولا يعقل ان تكون جميعها مصنوعة بعد الاسلام .

وهذا الذي نقوله متسق مع الحكمة والمنطق ايضاً . فالقصص القرآنية انما وردت كما هو واضح من أسلوبها وحكمة تكرارها وتنوعها وسياقها للعبرة والعظة والتمثيل والتذكير ، وهذا انما يكون ابلغ أثراً ونفوذاً الى النفوس إذا كان في صدد مايعرفه السامع ويعترف به . واذا كان هناك بعض آيات وردت عقب قصة نوح (ص) في سورة هود : « تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ... ٤٩ » وعقب قصة يوسف (ص) في سورة يوسف : « ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ... ١٠٢ وعقب قصة مريم في سورة آل عمران : « ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ يلقون اقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون ٤٤ فان الأولى ان يحمل هذا على مقاصد اخرى اسلوبية أو جزئية أو تعميمية اكثر مما يحمل على الجهل التام للقصة اصلاً ولا موضوعاً . لاسيما وقصتا نوح ويوسف (ص) من القصص التي وردت في التوراة مفصلة والتقارب كبير بين ماجاء عنها في التوراة وفي القرآن ، ولا يمكن ان يجهلها الكتابيون اذ ذاك كما ان من الراجح ان لا يجهلها العرب او بعضهم وهم متصلون بهم .

فليس من التجوز في شيء ان نقرر والحالة هذه :

١ — إنه كان لأهل بيئة النبي (ص) العرب حظ ما من المعارف والاخبار التاريخية .

٢ — إنه من المعقول أن لا يكون هذا قاصراً على ماوردت اليه الاشارة مجملاً أو مفصلا في القرآن ، لان ما ورد هو ما اقتضت حكمة التنزيل وحيه للعظة والتذكير ومن ذلك كثير مما نقله علماء الصحابة والأخبار والرواة ودونه المفسرون كشروح وبيانات للقصص القرآنية مما لا يعقل ان يكون كله مصنوعاً بعد الاسلام على ماذكرنا آنفاً وبقطع النظر عن ما تحمله وقائعها من نقد وتوقف .

٣ — إن هذه المعارف والاخبار التاريخية ترجع الى مصدرين : الأول عربي المكان والمنشأ والرواية مثل قصص عاد وثمود وسبأ ومدين ولقمان ، وقد يصح ان يسلك في هذا السلك قصص ابراهيم (ص) التي لم ترد اليها أية اشارة في التوراة والمتصلة بتقاليد عربية صرفة ، كاسكانه من ذريته في منطقة البيت الحرام ، وبنائه هو واسماعيل الكعبة ، ووضعه تقاليد الحج ودعوته اليه ، ومواقفه مع قومه في صدد اصنامهم وإلقائه في النار وسلامته منها الخ والثاني طاريء وهو ما جاء عن طريق الجاليات الكتابية وكتبهم ورحلات العرب الى البلاد المجاورة واتصالاتهم بأهلها مثل القصص التوراتية واليهودية والنصرانية الدينية وغير الدينية ، وامثال قصص ذي القرنين ورستم واسفنديار الخ ، مما ذكر في القرآن طرف منه وما لم يذكر حيث كان العرب في بيئة النبي (ص) يتداولون القصص العربية الاصل او المتصلة بالتقاليد العربية جيلاً بعد جيل ، وحيث كانوا يتخذونها هي وما جاءهم من المصدر الثاني قبل البعثة النبوية من وسائل سمرهم وتندرهم ، ويتناقشون فيها في مجالسهم .

— ١٤ —

بل نحن نذهب الى اكثر من هذا ونقول استلهاماً من القرآن انه يحتمل كثيراً ان يكون عند العرب كتب وصحف ورقوق قد دونت فيها الأخبار والقصص والمعارف التاريخية قبل البعثة العربية وغير العربية قبل البعثة ، ولم يقتصر تناقلها على الالسنة والصدور ، ولو لم يصل الينا منها شيء ، وذلك من تكرار تعبير « أساطير الأولين »

من كفار العرب كل ما تلا النبي (ص) عليهم القرآن . وهذا التعبير وإن كان يطلق على أقاصيص الأولين فاننا نميل الى الاعتقاد أنه ينطوي على معنى كتابات الأولين إن لم نقل ان هذا هو القصد منه ، وان اطلاقه على الأقاصيص القديمة او الخرافية هو اطلاق متأخر ، ولا سيما اذا لوحظ أن « اساطير » من « سطر » وان « سطر » تعني الكتابة وقد استعملها القرآن كذلك في آيات سر وفي الطور ١-٣ والقلم ١-٢ التي نقلناها في مناسبة قريبة ، ولعل في آية الفرقان الخامسة التي نقلناها قبل قليل قرينة قوية على صواب ما نقرره حيث احتوت حكاية قول الكفار إن النبي (ص) كان يستكتب اساطير الأولين ويحفظها ثم يتلوها عليهم مما يلهم أن كتابة الأخبار والقصص ليست مجهولة عند العرب وأن هناك اشياء مدونة منها كانت وسيلة لزعم ما زعمه الكفار بالنسبة للنبي (ص) . وقد ذكر ابن هشام[1] خبرين معينين يصح أن يستأنس بهما في ما نقرره الأول ان النضر بن الحرث الذي كان يخالف النبي (ص) في مجالس دعوته ويقص على الناس اخبار رستم واسفنديار كان يقول: « والله ما حديثه بأحسن حديثاً مني وما حديثه إلا اساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبتها » . والثاني « ان سويداً بن الصامت أتى النبي (ص) في موسم فدعاه الى الاسلام فاجابه لعلك تدعو الى ما في هذه المجلة ثم اخرج مجلة لقمان وعرضها عليه » .

— ١٥ —

وفي القرآن آيات كثيرة تشير الى البحر واسفاره والريح الطيبة والريح العاصفة والريح القاصفة وكذلك الى الأسفار والرحلات البرية التجارية وغير التجارية والسبل والفجاج والعلامات التي يهتدى بها في الأسفار مما نقلنا منه شيئاً كثيراً في الفصول السابقة وما نورد منه مايلي مما لم ننقله :

١ ـ الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً ... طاها ٥٣

٢ ـ وجعلنا في الأرض رواسي ان تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون ... الأنبياء ٣١

(١) ج١ ص٣٢٣ وج٢ ص ٢٧-٢٨

٣ ــ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشوء ... الملك ١٥

فتلك الآيات وهذه وما يسلك في سلكها تدل على كثرة الأسفار البرية والبحرية التي كان يقوم بها الحجازيون قبل البعثة والتي رجحنا ان تكون قد تجاوزت في البحر سواحل البحر الأحمر الى سواحل الحبشة وغيرها من افريقية الشرقية وآسيا الجنوبية، وان تكون رحلاتهم في البر قد تناولت العراق وفارس والشام ومصر وربما بلاد الروم في آسيا الصغرى . وليس من المعقول ان يكونوا قد تمرسوا بهذه الاسفار واكثروا منها إلا وقد تمرسوا بالمعارف الضرورية للملاحة سواء من حيث الطرق البحرية ومهاب الريح ، او من حيث المواني والثغور والأقطار والمدن التي كانوا يصلون اليها او يمرون بها ويتجرون معها ، وبكلمة اخرى لابد من ان يكون قد حصل عندهم ما نستطيع ان نسميه بالمعارف الجغرافية سواء منها الطبيعية او الاقتصادية او الاجتماعية ، وسواء منها البرية او البحرية . وفي ما انتهينا الى تقريره من معارف العرب التاريخية ما يدعم هذه النتيجة التي انتهينا اليها هنا دعماً قوياً ايضاً . فالعرب الذين حصلت عندهم هذه المعارف لابد من ان يكون قد حصلت عندهم معارف جغرافية متنوعة عن البلاد والمواقع التي كانوا يتداولون اخبار اممها ووقائعها بطبيعة الحال .

ــ ١٦ ــ

كذلك في القرآن آيات عديدة ذكر فيها الشمس والقمر ومنازل القمر وفلك الشمس والقمر وحركاتها وما في ذلك من علم السنين والحساب، وذكر فيها كذلك النجوم وحركاتها والاهتداء بها في ظلمات البر والبحر في الاسفار الليلية التي هي أهم اسفار العرب في الجزيرة او أعمها بسبب شدة الحرارة وصعوبة السفر في حمارة القيظ في النهار ، بل ذكر في بعضها اسم كوكب بعينه عدا الشمس والقمر كما ترى في الآيات التالية :

١ ــ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ... البقرة ١٨٩

٢ ــ فالق الاصباح وجعل لكم الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير

العزيز العليم ... الأنعام ٩٦

٣ — وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قدفصلنا الآيات لقوم يعلمون ... الأنعام ٩٧

٤ — هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ... يونس ٥

٥ — وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجومُ مسخرات بامره. النحل ١٢

٦ — والقى في الارض رواسي ان تميد بكم وانهاراً وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون ... النحل ١٥ — ١٦

٧ — وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون . الانبياء ٣٣

٨ — ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري الى أجل مسمى ... لقمان ... ٢٩

٩ — والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون (١) القديم . لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ... ياسين ٣٨ — ٤٠

١٠ — وانه هو رب الشِّعْرى ... النجم ٤٩

١١ — فلا أقسم بالخنّس . الجوار الكنّس (٢) . والليل اذا عسعس . والصبح اذا تنفس ... التكوير ١٥ - ١٨

١١ — فلا أقسم بالشفق . والليل وما وسق والقمر اذا اتسق ... الانشقاق ١٦ — ١٨

---

(١) العرجون القديم : غصن النخلة اذا تقادم ويبس وصفر ، والتشبيه هو تشبيه للقمر في أواخر مظاهره الشهرية .

(٢) الجوار : اي السيارة . الكنس : جمع كنساء وهي المحجوبة اوالمختفية . الخنس : جمع خنساء وهي النجوم التي تأتي ثم تكر راجعة .

واسلوب هذه الآيات التي جاءت في معرض التذكير بنعم الله أو التنويه بعظمة الله يدل على ان الذين يسمعونها يفهمون دلالاتها ، وبالتالي يدل على ان العرب في بيئة النبي (ص) وعصره كانوا على شيء من العلم بمواقع النجوم وحركاتها وبعض اسمائها ، وانهم كانوا ينتفعون من علمهم هذا في اسفارهم وحلهم وترحالهم ومواقيتهم واسفارهم ، وكانوا يقدرون حركتي الشمس والقمر وينتفعون بهما في حساب المواسم والايام وبكلمة أخرى انهم كان عندهم شيء من المعارف الفلكية (١) . هذا مع القيد الى اننا لا نذهب الى القول ان ما كان عند العرب من هذه المعارف مماثل لما كان في عهدهم اوقبله عند اليونانيين من المعارف الفلكية التي كانت لها عندهم قواعد وحدود علمية ؛ وانما نرجح انها كانت معارف اولية مستمدة من تجاربهم واسفارهم ومشاهداتهم .

- ١٧ -

وما دمنا في صدد الكلام عن معارف العرب التي تدل على قواهم العقلية ومظاهرها فان من الحق ان نقرر انه لا يعقل إلا أن يكونوا قد ألموا او المت طبقة منهم بطبيعة الامراض ومعالجتها والعقاقير واستعمالها بالتجربة والمشاهدة أوبالاقتباس من البلاد المجاورة ، مما يصح أن يسمى « المعارف الطبية » ولو لم يكن في القرآن الا اشارة عابرة بسبيله وهي التي وردت في احدى آيات النحل عن العسل :

ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس ... ٦٩

---

(١) من الممكن ان يشار بهذه المناسبة الى تقسيمات البروج واسمائها العربية وهي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت والى منازل القمر واسمائها العربية وهي السرطان والبطين والنجم والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والغرنان والصرفة والعواء والسماك والقفر والزباني والاكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية وفرع الدلو المقدم وفرع الدلو المؤخر حيث يدل هذا كذلك على عناية العرب بحركات النجوم ورصدها

ونتنبه على ان الروايات والتراجم احتوت اسماء عدد من العرب أشتهروا بمعاطاة الطب قبل البعثة وفي اثنائها .

— ١٨ —

كذلك فان حياة العرب القبيلية تجعل من السائغ أن يقال إنهم لا بد من ان يكون قد نشأ فيهم طبقة قد ألمت المماً واسعاً في الانساب وتسلسل القبائل والعشائر والبطون والبيوت وتطوراتها ومحالفاتها وولائها لان ذلك من مستلزمات هذه الحياة مما يمكن وصفه بعلم الانساب ، ولو لم يكن قد ورد في القرآن مما يمت الى هذا الامّ اشارات عابرة في آيتين وهما :

١ — فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ... المؤمنون ١٠١

٢ — ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ... الحجرات ١٣

وهذا القول يمكن تكراره بما يتعلق بمهاب الرياح والأنواء والامطار ومساقط المياه وبما يتعلق بقيافة الاثر ولو لم يمكن الاستناد في تقرير معارف العرب هذه الشؤون الى نصوص قرآنية صريحة .

أما معارفهم الزراعية فلا نشك في انها كانت وفيرة . وقد أشرنا الى ذلك بشيء من الاسهاب واستعرضنا الآيات القرآنية الواردة في هذا الصدد في احد فصول الباب الاول . كذلك كانت معارفهم الحسابية ايضاً مما بحثناه في مبحث خاص في احد فصول الباب المذكور ، فنكتفي بالاشارة الى ذلك .

— ١٩ —

واذا اردنا ان نجمل ما قلناه في الابحاث المتقدمة وان نرسم صورة للعرب في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة بالنسبة للعلوم والمعارف يمكننا ان نقول :

١ — إن القراءة والكتابة كانتا منتشرتين انتشاراً محسوساً وانه لا يبعد ان يكون في البادية افراد قد ألموا بها .

٢ — إن من العرب من كان يلم ببعض اللغات الاجنبية ويطلع على ما عند

أصحابها من كتب دينية وغير دينية .

٣ — ان العرب كانوا ملمين باخبار الامم وقصص الانبياء ، وإنه كان عندهم كتب وصحف ورقوق ومجلات فيها اخبار ومعارف تاريخيه ، وإن من هذه الاخبار والمعارف ما هو عربي الاصل والمكان ومنها ما هو اقتباس .

٤ — إن العرب كانوا ملمين بمعارف جغرافية وفلكية وطبية بعض الالمام القائم على المشاهدات والتجارب .

٥ — إن العرب كانوا ماهرين بالانساب والقيافة ومهاب الرياح والانواء .

٦ — إن معارفهم الزراعية والحسابية كانت غير ساذجة وبسيطة .

وهذه الصورة تسوغ القول بان قوى العرب العقلية قد تأثرت بهذه المعارف المتنوعة ، وأنهم قد قطعوا في مضمار الحضارة العقلية والثقافية اشواطاً لاباس بها ولو لم يلحقوا بها أهل البلاد المجاورة لهم .

— ٢٠ —

ونريد أن نلحق بهذا الفصل موضوعي الكهانة والسحر في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة لان لهما في ما نرى صلة بمتناوله على اعتبار انهما من العلوم والمعارف النفسية ، وأنهما على هذا الاعتبار يمكن أن يعدا مظهر من مظاهر القوى العقلية عند العرب .

ولقد كان للكهانة والسحر عند العرب شأن غير يسير ، وتأثير غير قليل في اذهانهم ومشكلاتهم النفسية والروحية . وكان العرب ينظرون الى الكهان خاصة نظرة احترام وتقدير ، ويرون فيهم اطباءهم الروحيين ، يفزعون اليهم في كل ملمة نفسية ، ومشكلة روحية تطرآن عليهم وتحدثان لهم ازعاجاً وقلقاً واضطراباً ، وينشدون لديهم الطمأنينة والمعرفة . فاذا رأى أحدهم رؤيا رهيبة فزع الى الكاهن ليعبرها له ، وإذا وقع بينهم خلاف على بعض الامور الغامضة رجعوا إلى الكاهن لحله ، وإذا حدث أمر خطير جرى أو أرضى أخاف الناس تهافتوا إلى الكهان يستنبؤنهم الغيب ويطلبون عندهم التفسير والتعليل .

وقد وردت كلمة « الكاهن » في القرآن في أيتين تنفيان عن النبي (ص) الكهانة

التي كان كفار العرب ينسبونها اليه وهما :

١ — فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ... الطور ٢٩

٢ — ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون ... الحاقة ٤٢

وليس في القرآن غير هاتين الآيتين يمكن أن تساعد على رسم صورة واضحة للكاهن عند العرب . غير أن نسبتهم الكهانة إلى النبي (ص) لم تكن بطبيعة الحال إلاّ لأنهم رأوا مشابهة ما على زعمهم بينه وبين الكهان . ويستفاد مما جاء في الروايات العربية عن الكهانة والكهان :

اولاً — إن الكهانة ليست مظهراً دينياً عند العرب .

ثانياً — إن الكهان كانوا يرسلون أقوالهم وإجاباتهم على اسئلة السائلين بالاسلوب المسجع الرنان، ويضمنونها بعض التوريات التي يجد فيها السامع احياناً تفسيراً لما في نفسه .

ثالثاً — إنهم كانوا يحدثون الناس عن المغيبات والمستقبل فيما يرسلونه من الكلام الغامض المسجع المحتوي التوريات .

رابعاً — انهم كانوا يوهمون الناس او أن الناس كانوا يتوهمون ، ولعل الكهان انفسهم ايضاً كانوا يتوهمون بسبب ما كان يجرى على لسانهم من سجع وتوريات أن لهم تابعين من الجن يساعدونهم في مهمتهم ، وأن هؤلاء التابعين كانوا يسترقون السمع ويخطفون الاخبار من السماء ويلقونها في روع الكهان فينطق هؤلاء بها . وتلفت النظر إلى ان بعض الآيات القرآنية قد أشارت إلى اختطاف الشياطين اخبار السماء واستراقهم السمع كما ترى في الآيات التالية .

١ — ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ... الحجر ١٦—١٨

٢ — إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظاً من كل شيطان مارد . لايسمعون إلى الملأ الأعلى ويُقذفون من كل جانب . دحوراً ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ... الصافات ٦—١٠

٣ — وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً . وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ... الجن ٨—٩

٤ — ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير. الملك ٥

وعلى هذا فتكون المشابهة التي رأها الكفار بين النبي (ص) وبين الكهان هي ما كان النبي (ص) يتلوه من الآيات القرآنية المسجعة الرنانة او المتوازنة، ولا سيما في اوائل بعثته، واكثر الآيات المسجعة كانت في اوائل البعثة، وما كان يخبر به من أخبار المستقبل والبعث والحساب والجنة والنار وصلته بالله والسماء والملائكة، وتنزيل القرآن على قلبه بواسطة الملائكة.

وسياق الآيتين اللتين وردت فيهما كلمة «الكاهن» وروحهما يمكن ان تجعل صورة الكاهن العربي وفق ما ذكرناه مما او ضحته الروايات.

ولقد نقلت الروايات اخباراً كثيرة عن الكهان والكاهنات، ورجوع الناس اليهم في الملمات والمشاكل والاحلام كما انها نقلت اسماء عدد منهم ونماذج من اقوالهم (١). ومهما كان من شأن هذه الروايات فأنها بالاضافة إلى النص القرآني الحاسم الذي يلهم وجود هذه الطبقة تصح أن تكون دليلا على ما كان لها في اذهان العرب من صورة قوية مؤثرة، وما شغلته عندهم من الحيز الكبير والاهتمام العظيم حتى كان من امرهم ان جنحوا إلى تعليل مظهر النبوة في النبي (ص) بالكهانة وسلكه في سلك الكهان لما رأوه من المشابهة بينه وبينهم.

وعلى هذا فنحن على حق إذا عددنا الكهانة طوراً من اطوار العقل العربي ومظهراً من مظاهر قواه ولو كان هذا ليس خاصاً بالعرب من جهة وقاصراً على طبقة قليلة الافراد من جهة اخرى. فان مثل هذه الدعوى والاضطلاع بها، واستهواء الناس اليها على اختلاف طبقاتهم ودون استثناء الزعماء والنابهين لا يمكن أن يكون إلا من افراد وهبوا حدة ذكاء، وسعة حيلة، وقوة عقل وقدرة على التصرف في فنون الكلام. ولعل بعض هؤلاء كانوا يعتقدون فعلاً بسبب ما أوتوه من مميزات وقوى انهم متصلون بالجان ومساعدون منهم على ما كان سائداً في اذهان العرب من اتصال هؤلاء بالنوابغ والعباقرة. وليس من التجوز أن يقال إن وجود

(١) ابن هشام مثلا ج ١ ص ١٤-١٧ و ١٣٥-١٤٤ و ١٩٤-٢٠١

افراد متصفين بصفات مثل هذه في أمة ما في احد عصورها يصح ان يذكر كظاهرة من قوة تلك الأمة العقلية في ذلك العصر ؛ لا سيما إذا كان إلى جانبها طبقات اخرى متميزة بظواهر مماثلة كما هو شأن العرب في عصر النبي (ص) وبيئته على ما جاء في الفصول السابقة ويجيء في الفصول اللاحقة .

— ٢١ —

اما السحر والسحرة فقد جاء ذكرهم في آيات كثيرة ومناسبات متنوعة :

منها ما ورد في قصة موسى (ص) وفرعون كما ترى في الامثلة الآتية :

١ ـ قالوا ياموسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين . قال ألقوا فلما ألقوا سحروا اعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم ... الاعراف ١١٥-١١٦

٢ ـ قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما ان نكون اول من ألقى . قال بل القوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى ... طاها ٦٥-٦٦

ومنها ماورد في معرض حكاية اقوال الكفار ونسبتهم السحر الى النبي (ص) احياناً واعتبارهم دعوته وما يعده ، القرآن من بعث وحشر وحساب وجنة ونار سحراً كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ... الانعام ٧

٢ — أكان للناس عجباً أن أوحينا الى رجل منهم أن انذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ...يونس٢

٣ — ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ... هود ٧

٤ — ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ... الحجر ١٤ـ ١٥

٥ — إذ يقول الظالمون إن تتبعون الا رجلاً مسحوراً ... الاسراء ٤٧

٦ — لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا الا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ... الأنبياء ٣

٧ — وقالوا إن هـذا إلا سحر مبين . أءذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أءنـا لمبعوثون ... الصافات ١٤ — ١٦

٨ — وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ... القمر ٢

ومنها ماورد في معرض التنديد باليهود واتباعهم اقوال الشياطين، وما كان من خبر سحر هاروت وماروت في بابل كما جاء في آية البقرة (١٠٢) التي نقلناهـا في الفصل الثالث من الباب الاول .

ومنها سورة الفلق التي تأمر بالاستعاذة من النفاثات في العقد التي هي أعمـال سحرية على ماذهب اليه جمهور المفسرين :

«قل أعوذ برب الفلق . من شر ماخلق . ومن شر غاسق إذا وقب . ومن شر النفاثات فى العقد . ومن شر حاسد إذا حسد ... »

وهذه الآيات ليست كل الآيات التي ورد فيها ذكر السحر والسحرة. فان عدد هذه الآيات يبلغ نحو الخمسين . ومن الغريب انه بينما لم يذكر الكهان إلا في آيتين فان الروايات التي تروي أخبار الكهانة والكهان واقوالهم واسماءهم كثيرة ، وبينما لم يرد في الروايات شيء كثير عن أخبار السحرة والسحر وأعمالهم ورد ذكرهم في هذا العدد الكبير من الآيات القرآنية .

ومهما يكن من أمر فان ترديد بعض كلمات السحر والساحر والمسحور والسحرة في القرآن وحكاية اقوال الكفار في نسبة السحر الى النبي(ص) دليل حاسم على ان العرب قد عرفوا السحر والسحرة قبل البعثة ، وأن هذا المظهر من مظاهر القوى العقلية كان موجوداً عندهم .

ومن الممكن استلهام الآيات القرآنية في التعرف على ما كان السحرة يقومون به من اعمال أو على ما كان في اذهان العرب في صدر السحر والسحرة من صور كما يلي :

اولاً إنه كان مفهوماً إن بين الشياطين والسحر والسحرة صلات المعلم والمتعلم وإن الساحر يقدر ان يفرق بين المرء وزوجه (آية البقرة ١٠٢) .

ثانياً إنه كان مفهوماً أن الساحر يستطيع ان يخيل للرائي الاشياء على غير حقيقتها

وأن يبعث الخوف والرهبة في نفوس الناس (آيات الاعراف ١١٥ ١١٦ وطاها ٦٥ ٦٧)

ثالثاً إن العرب كانوا اذا ماسمعوا شخصاً يتكلم بأمور لم يكونوا رأوها او اعتادوها او سمعوها وفيها بعض الأمور الغامضة او الجديدة الخارقة اعتبروه أنه واقع تحت تأثير السحر وقالوا إنه مسحور .

رابعاً ان العرب كانوا يعتبرون احياناً مايقع من الخوارق على ايدي البشر سحراً ولو لمسوه بأيديهم ورأوه بأعينهم .

خامساً إنه كان من جملة اعمال السحرة عقد العقد والنفث عليها اي تلاوة بعض الكلمات السرية او الموهمة ذلك عليها .

سادساً إن من اليهود من كان يتعاطى اعمال السحر .

فاذا اردنا بعد هذا البيان ان نرسم صورة للساحر استطعنا ان نرسمها قريبة من صورة الكاهن ، من حيث هو شخص أوتي ذكاءاً حاداً وقدرة على التصرف ، وسعة في الحيلة ، وقوة على الايهام بالاتصال بالجان واستخدامهم في متنوع الاغراض ، وعلى التأثير في القوى الانسانية واستهوائها بحيث يخيل لها وجود مالا وجود له ووقوع مالم يقع . ويقال في السحرة ماقلناه في الكهان من احتمال توهم بعضهم اتصال الجان بهم ومساعدتهم إياهم على اعمالهم بسبب مايبدو لهم في أنفسهم من قوى واستعداد جرياً على عقيدة العرب باتصال الجان بالنوابغ والعباقرة .

وعلى هذا يصح ان يعد السحر كما سبق القول عن الكهانة طوراً من اطوار العقل العربي ومظهراً من مظهر قوى العرب العقلية .

— ٢٢ —

هذا ، ويحسن قبل ان ننتهي من هذا الفصل ان نشير الى كلمة « الحكمة » التي وردت في آيات كثيرة ، منها مايتصل بالأنبياء (ص) ومنها مايتصل بمهمة النبي (ص) ومنها ماهو بسبيل التنويه بها اطلاقاً كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ... البقرة ١٢٩

٢ — يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً. البقرة ٢٦٩

٣ — ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ورسولاً الى بني اسرائيل ... آل عمران ٤٨ — ٤٩

٤ — ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم (١) والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ... آل عمران ٧٩

٥ — وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ... النساء ١١٣

٦ — ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة (٢) ... الاسراء ٣٩

٧ — ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ... النحل ١٢٥

ويستفهم من الآيات بوجه الاجمال ان الحكمة هبة عقلية يكون صاحبها بها راجح العقل صائب الحكم محكم الرأي ، مستلهما الخير والحق والرشد في مايقول ويفعل ، وانها مظهر من مظاهر رجحان العقل ، وحسن البصيرة والتصرف والنضوج ، وسلامة الضمير والذوق ، وحب الخير والحق ، والعزوف عن الشرور والرعونات . والآيات وإن لم تكن لها صلة مباشرة بحالة العرب قبل البعثة فان ورود الكلمة في القرآن مرات كثيرة تحمل هذه المعاني يسوغ القول أن معناها ومداها مما كان مفهوماً عند العرب ، وان منهم من كان متصفاً بهذه الاوصاف ، يرجع اليهم في مدلهمات الخطوب ، وعويصات المشاكل ، فيصدرون عن عقل راجح وفكر ثاقب ، وقلب زكي ، ورأي محكم ، وبالتالي يسوغ القول ان هذا الطور من اطوار القوة العقلية كان موجوداً في العرب في بيئة النبي (ص) وعصره قبل البعثة . ولقد سمت الاخبار بعض رجالاتهم فعلا مثل الاكثم بن صيفي صاحب الامثال والحكمة والاقوال التي سارت أمثالاً بما فيها من رأي ناضج وفكر ثاقب . واذا صح ان لقمان من العرب ونحن نرجح هذا فهو مثل آخر يمدنا به القرآن ، حيث جاء ذكره

(١) الحكم = الحكمة (٢) هذه الآية تعقيب على سلسلة الوصايا القرآنية الجلية الشأن الواردة في سورة الاسراء (٢٢ — ٢٩) التي هي اسمى مصداق لما ذكرناه مما تلهمه الآيات عن معنى الحكمة .

وذكر حكمته في آيات من سورة لقمان فيها المواعظ الحكمية المتسقة مع الوصف الذي وصفناه كما ترى فيما يلي :

ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان الله غني حميد . واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابني لاتشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم . ووصينا الانسان بوالديه حملته امه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكرلي ولوالديك الي المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من اناب الي ثم الي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . يابني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير . يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك إن ذلك من عزم الأمور . ولا تصعّر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لايحب كل مختال فخور . واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ...

١٢ — ١٩

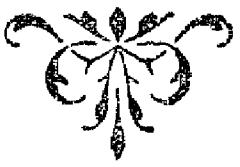

الفصل الثالث

مواقف المشاقة ودلالتها على قوة العرب العقلية

دلالة المشاقة ووجاهة هذا الفصل — ما في القرآن من صور لها — بحث في المشاقة ودلالتها على قوة عقل العرب — المشاقة في العهد المكي — صور من الآيات القرآنية عنها — في العهد المدني — صور قرآنية المشاقة فيه .

— ١ —

في القرآن الكريم آيات كثيرة جداً تشير إلى مواقف المشاقة والمعارضة والمناوأة التي كان يقفها العرب من النبي (ص) كفاراً ومنافقين ، وتحكي اقوالهم وافعالهم ، وتصف مكرهم ومكائدهم وحجاجهم ولجاجهم .

والمشاقة والمعارضة في كل زمن وهدف ومهما كان امرها تنطوي على شيء من الحيوية والقوة العقلية التي تدفع اصحابها إلى الوقوف من معارضيهم وخصومهم تلك المواقف ؛ سواء أكان ذلك بدافع العقيدة والايمان أم بدافع الأنانية والطمع والطموح ، أم بدافع الاستكبار والحسد والعناد واللجاج . فان كل ذلك لا يمكن أن يبدو من أناس اغبياء غافلين ، وضعفاء خاملين . وبقدر ما يكون عليه موضوع المعارضة والمشاقة من خطورة ، وما يكون الطرفان عليه من قوة مادية او عقلية اونفسية تكون النتائج والمظاهر بطبيعة الحال .

هذا ما جعلنا نعقد هذا الفصل في هذا الباب ، ونستعرض شيئاً مما جاء في صدد مواقف الكفار والمنافقين من أهل بيئة النبي (ص) من الآيات القرآنية لنتبين ما كانت عليه قوى العرب العقلية من هذه الناحية ايضاً . ولا نشك في ان هذه المواقف تصلح لتكون مقياساً لهذه القوى ، ومظهراً من مظاهرها .

والذي يتمعن في الآيات القرآنية يجد فيها صوراً كثيرة لتلك المواقف ، حيث يجد صوراً للجدل العنيف والخصومة العنيدة ، وصوراً للجاج والحجاج والمكابرة ،

وصوراً للمكر والدس والاحراج في المسائل والمطالب والمشاكل ، وصوراً للأنانية والاستكبار والسخرية والاغراء والاغواء . وفي طيات هذه الصور القرآنية تلمح عقلية قوية ، وشعوراً شديد بالذاتية والكيان ، ونفسية طماحة طماعة ، ودفاعاً عن تقاليد ومصالح تراءى لاصحابها أنها مهددة ، وعناداً ناشئاً عن استكبار وذاتية وعقل وليس عناد الغبي الغافل ، والضعيف الخامل ، والأحمق الجاهل .

ولهذا فمن الحق ان يطيل الباحث النظر في هذا المواقف والصور ، حيث يرى فيها مظهراً قوياً من مظاهر القوى العقلية فى أهل بيئة النبي (ص) وعصره ، وخاصة في المدن ، وبنوع أخص في الطبقات التي تولت قيادة المشاقة والمعارضة والتي عناها القرآن في هذه الآيات :

١ — وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون . وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ... الانعام ١٢٣ - ١٢٤

٢ — وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الارض قالوا إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ... البقرة ١٢ - ١٣

واذا لاحظنا ان هؤلاء المشاقين الكفار والمنافقين قد كانوا رجالاً بلغوا أشدهم وبرز اكثرهم في بيئته في مختلف المناحي قبل البعثة النبوية حق لنا ان نرى ان المظهر القوي الذي تمثله مواقفهم تقواهم العقلية إنما تمثل في الحقيقة مظاهر القوى العقلية قبل البعثة ؛ وحينئذ يتسق بحثنا من هذه الناحية .

— ٢ —

ولقد يقال في هذه المناسبة إن المماراة والمعارضة لما جاء به النبي (ص) من الدعوة المؤيدة بقوة الله وروحانية الحق والمنطوية على صدق اللهجة ونصاعة الحجة لا تكون من اناس أقوياء العقول والمدارك ؛ ومع أن هذا هو الذي كان يدفع بعض المؤلفين قديماً وحديثاً الى الحط من تلك العقول والمدارك ، وتصوير عهد

ما قبل البعثة تصويراً قاتماً يخبط اهله بالجهل والغباء ، ويرتكسون في الانحطاط والتوحش تديناً وتأثماً ،وذهاباً الى ان هذا الوصف هو الذي يتسق مع مهمة الرسالة النبوية التي ارادها الله لاخراج الناس من الظلمات الى النور ؛ في حين :

(١) إن هذه الظلمات المعنية هي ظلمات الشرك والوثنية والانحرافات الاخلاقية والاستغراق في شهوات الدنيا وملاذها ، ونسيان الآخرة وحسابها وعذابها ونعيمها ، وليست ظلمات الجهل والتوحش وانحطاط المدارك والقوى العقلية كما يمكن ان يفهم ذلك من سياق الآية التي تذكر تلك المهمة النبوية:

«الر كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد . الله الذي له مافي السموات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد . الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً اولئك في ضلال بعيد . وما أرسلناه من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم .

ابراهيم ١ – ٤

و (٢) إن العقائد الدينية في الناس في الاعم الاغلب تكون وراثية وتقليدية ولسان حالهم يقول كما وصف القرآن ذلك :

«بل قالوا انا وجدنا آبائنا على أمّة (١) وإنا على على آثارهم مهتدون . وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آبائنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون» الزخرف ٢٢ - ٢٣

و (٣) إن الاهتداء الى الدين القويم يحصل بهداية ربانية وانشراح الصدر وباعداد او استعداد نفسي كما جاء في آيات سورة ابراهيم السابقة وفي آيات كثيرة منها هذه الآية :

«فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يُرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعّد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون.

الانعام ١٢٥

---

(١) على طريقة او حالة

و (٤) إن العقائد الباطلة او المنحرفة يمكن أن تكون عند أقوياء العقول والمدارك ، والمترقين في مدنيتهم وعلومهم وثقافتهم كما يعرف ذلك بالبداهة والواقع السابق والحاضر . ففي كل زمن ومكان وجدت أديان مختلفة ، ولا يكون الحق إلا في واحد ، ومع ذلك فالذين لم يكونوا من ذلك الواحد الحق ليسوا دائماً اغبياء منحطين ، وهمجاً جاهلين ، بل كثير منهم يفوقون في عقولهم ومداركهم ومدنيتهم وعلومهم كثيراً من الذين هم من ذلك الواحد الحق ؛ وهذا مشاهد محسوس لا يمكن المراء فيه .

ولقد وقف اليهود وبعض النصارى في بيئة النبي (ص) موقفاً مماثلا لموقف كفار العرب، وجحدوا رسالته وناوئوه وكادوا له، ولم تكن الحملة عليهم ولاسيما على اليهود بسبب جهلهم وضعف مداركهم لان هذا لم يكن ليقال عنهم ، وقد استشهد بهم القرآن المكي على صحة الرسالة النبوية والتنزيل القرآني ، وإنما بسبب كفرهم ومكرهم عناداً وحسداً واستكباراً بينما كانوا يعرفون أن رسالة النبي (ص) حق ومصدقة لما معهم كما جاء في آيات كثيرة نقلناها في الفصل الثالث من الباب الاول .

و(٥) إن الآيات القرآنية التي سنستعرضها في هذا الفصل تحتوي البراهين القاطعة على أن إصرار كفار العرب على كفرهم ومواقفهم الكيدية والمكرية والشقاقية التي وقفوها ولا سيما اهل المدن وبنوع خاص زعماؤهم وكبراؤهم وأغنياؤهم لا يعت الى سبب الجهل والغباء وانحطاط المدارك ، وإنما يعت الى العناد واللجاج والحسد والغرور والانانية وخشية فقدهم منافعهم وامتيازاتهم ومراكزهم ونفوذهم

—٣—

يضاف الى هذا كله أن كثيرين ممن وقفوا موقف المشاقّة والمعارضة مدة قصيرة أو طويلة ولا سيما في مكة قد اسلموا ، وكانوا فيما تولوه بعد الاسلام من أعمال الحرب والفتح والحكم والسياسة والادارة والقضاء مثلا في العبقرية والدهاء وسعة الحيلة وحسن التصرف ، وعظمة النفس وبعد النظر، امثال عمرو بن العاص وخالد بن الوليد ويزيد بن ابي سفيان ومعاوية بن ابي سفيان والمغيرة بن شعبة رضوان الله عليهم وغيرهم وغيرهم ؛ وطبيعي أن هذه الصفات لم تكن

مفقودة فيهم ، ولم تكن الأهلية التي اضطلعوا بقوتها باعباء مهامهم الكبيرة ونجحوا فيها ذلك النجاح الباهر عفو الساعة ، وإنما كانت فيهم من قبل نامية أو كامنة ، وكان كثيرون منهم بارزين وذوي شأن في بيئتهم .

وهذا عدا كبار الصحابة الذين كانو السابقين الى الاسلام، واظهروا الكفايات العبقرية في الحكم والادارة والقيادة والقضاء كابي بكر وعلي وعثمان وأبي عبيدة وسعد وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وجعفر بن ابي طالب رضوان الله عليهم وغيرهم الذين نشأوا في تلك البيئة وكان أكثرهم قد بلغ أشده قبل البعثة ، ومنهم من كان بارزاً ذا شأن في قومه ايضاً .

فبيئة ينبت فيها مثل هؤلاء العقلاء الحكماء الاقوياء في نفوسهم وقلوبهم لا يصح ان تعتبر بطبيعة الحال متوحشة همجية منحطة المدارك والقوى العقلية .

ويحسن الاشارة بهذه المناسبة الى أن عن أمثال هؤلاء وآبائهم صدر كثير من تقاليد الحج والأشهر الحرم وغيرها من التقاليد الاجتماعية التي أقر الاسلام كثيراً منها إما على حاله أو بعد شيء من التهذيب ، وقد انطوت من دون ريب على فوائد ومنافع وغايات بعيدة المدى تدل على البصيرة الصائبة والنظر الثاقب والعقل الراجح .

وكذلك تحسن الاشارة ايضاً الى ان اللغة العربية القرآنية كانت لغة هؤلاء وامثالهم وآبائهم الأقربين ، وهي اللغة التي وصلت الى أسمى الطبقات واروعها فصاحة وبلاغة وقوة بيان وتفنن أسلوب وغزارة مادة وبراعة صرف ونحو واشتقاق وبديع ، والتي استدللنا بها على ما كان عليه اهل بيئة النبي (ص) وعصره من عقل حي وذهن وقّاد ، واحساس مرهف وذوق سليم ، وبصيرة نافذة .

ونذكّر القارىء بما قلناه في الفصل الأول من هذا الباب من أنا لسنا منفردين بهذا القول ، وقد قاله قبلنا كثير من المفسرين ، وقد نقلنا اقوال ثلاثة من أجلّهم ...

— ٤ —

ومواقف المشاقة والمعارضة التي وقفها العرب كانت في عهد مكة والمدينة على السواء . والقرآن المكي يمثل الاول كما ان القرآن المدني يمثل الثاني .

ولقد كان الاول هو الاشد أذى والأبعد نكاية ، لأن أهل مكة كانوا في موقف القوى العزيز الجانب ، وكان المسلمون في حالة القلة والضعف التي أشارت اليها احدى آيات الانفال مذكّرة :

« واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون ان يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ... ٢٦

وقد ثبت الله نبيه (ص) فظل يحمل المهمة العظمى التي اختاره الله لها ، ولم يبال ما لقيه مقدراً خطورة هذه المهمة تقديراً جعله قوي النفس قوى القلب قوى الجلد ، أشد مايكون رباطة جأش وثبات جنان ، وقوة عزيمة ، ومضى في المهمة الى النهاية ، فناصبه الزعماء والاغنياء والوجهاء والكبراء والنبهاء عداء شديداً عدته اللجاج والحجاج والجدل والسخرية والاحراج والتكذيب ، وفي كل ذلك يبدون اقوياء عنيفين ، شاعرين بقوتهم وذاتيتهم ، مناضلين عن عقائدهم وتقاليدهم وتراث آبائهم ، وعن ماظنوه مصالح لهم ستضيع ، ومراكز ستهدم ، وامتيازات ستنفقد ، وحرمة ستزول نضالاً قوياً عنيفاً فيه من قوة الجدل واللدد والعناد ، وتنوع الاساليب مايدل على أنهم كانوا على جانب غير يسير من العقل والذكاء والفطنة والدهاء ، والادراك والتدبير ، ولم يبالوا بما كان ينذرهم به بلسان القرآن من عذاب الدنيا والآخرة ، بل كانوا يقابلون هذا بالتكذيب تارة والسخرية تارة والتحدي تارة كما تمثله هذه الآيات :

١ — واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا اساطير الأولين . وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء اوأتنا بعذاب أليم ... الانفال ٣١ — ٣٢

٢ — واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ماهذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ماهذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين ... سبأ ٤٣

— ٥ —

والآن نأتي الى ايراد شيء من الآيات المكية التي تصور مواقف المشاقة والمعارضة التي وقفها كفار مكة وخاصة كبراؤها وزعماؤها ونابهوها وتابعهم فيها عامتهم .

ولم نر ضرورة للشرح والتنبيه لأنها قوية الوضوح والدلالة كما لم نر ضرورة الى تصنيفها حسب المواقف لأن هذا انما يتصل بالسيرة النبوية[1] في حين اننا بسبيل عرض مافيه دلالة على قوة عقل وشدة مكر ودهاء ، ونحن على يقين تام من ان الذي يتمعن فيها يلمح ما اردنا التدليل عليه بصورة بارزة .

ونحب ان نلفت النظر اولاً الى أننا لم نسرد إلا القليل من الآيات وأن في القرآن شيئاً كثيراً من الآيات التي هي بسبيل المعارضة والمشاقة ، ولا بد من تلاوة القرآن تلاوة إمعان وتدبر ليقف القارىء على هذه الصفحة الرائعة من الخصومة وقوة اللدد في مناسباتها وسياقها . وثانياً الى أننا لم نورد شيئاً من الآيات التي فيها حكاية عقائد العرب وافكارهم الدينية والجدل حولها تاركين ذلك للباب الرابع :

١ — ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بايديهم لقال الذين كفروا إن هذا الا سحر مبين . وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو انزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا يُنظرون . ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون . ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون .

الانعام ٧ — ١٠

٢ — ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين .

الانعام ٢٥

٣ — قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كُذبت رُسل من قبلك فصبروا على ما كُذبوا وأوذوا حتى اتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين . وإن كان كبر عليك إعراضهم فان استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض اوسلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين .

الانعام ٣٣ — ٣٥

٤ — وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل . لكل نبأ مستقر

(١) سيصدر بعد هذا كتاب فصول في السيرة النبوية على نمطه ان شاء الله .

وسوف تعلمون . وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينّك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين .
الانعام ٦٦ — ٦٨

٥ — ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي اليّ ولم يوح اليه شيء ومن قال سأنزل مثلما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا ايديهم أخرجوا انفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون . الانعام ٩٣

٦ — وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدواً شياطين الأنس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ...
الأنعام ١١٢

٧ — تسلك في هذه السلسلة آيات الأنعام ١٣٣ — ١٢٤ التي تقلناها قبل قليل.

٨ — وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا او بدله ... يونس ١٥

٩ — فلعلك تاركٌ بعض ما يوحى اليك أو ضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز او جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيءٍ وكيل . . .
هود ١٢

١٠ — ولو أن قرآناً سيرت به الجبال او قطعت به الارض او كلم به الموتى(١) بل لله الأمر جميعاً أفلم ييئس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد . ولقد استهزيء برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ... الرعد ٣١ — ٣٢

١١ — وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرُهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ... ابراهيم ٤٦

١٢ — إلهكم اله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون.

---

(١) الجواب مضمر تقديره لما آمنوا

لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين . واذا قيل لهم ما ذا أنزل ربكم قالوا أساطير الاولين . ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون ... النحل ٢٢ — ٢٥

١٣ — وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين ... النحل ٣٥

١٤ — نحن اعلم بما يستمعون به اذ يستمعون اليك واذ هم نجوى اذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً . انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا . وقالوا أءذا كنا عظاماً ورفاتاً أءنا لمبعوثون خلقاً جديداً . قل كونو حجارة او حديداً او خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون اليك رؤسهم ويقولون متى هو قل عسى ان يكون قريباً ... الأسراء ٤٧ — ٥١

١٥ — وإن كادوا ليفتنونك عن الذي اوحينا اليك لتفتري علينا غيره واذاً لاتخذوك خليلا . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلا ...
الأسراء ٧٣ — ٧٤

١٦ — وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا ... الاسراء ٩٠ — ٩٣

١٧ — ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الانسان أكثر شيء جدلا . وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الاولين او ياتيهم العذاب قبلا . وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما انذروا هزواً...
الكهف ٥٤ — ٥٦

١٨ — وقال الذين كفروا ان هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤوا ظلماً وزوراً . وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ... الفرقان ٤ — ٥

١٩ — وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً . وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً . وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ...
الفرقان ٣٠ — ٣٢

٢٠ — وإذا راوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولا ...
الفرقان ٤١

٢١ — وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من ارضنا ... القصص ٥٧

٢٢ — ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين . واذا تتلى عليه اياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً فبشره بعذاب اليم ... لقمان ٦ — ٧

٢٣ — وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق أنكم لفي خلق جديد أفترى على الله كذباأم به جنة بل الذين لايؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ... سبأ ٧ — ٨

٢٤ — وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ... سبأ ٣٣

٢٥ — وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الامم فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفوراً . استكباراً في الارض ومكر السيئ ...
فاطر ٤٢ — ٤٣

٢٦ — إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه ... غافر ٥٦

٢٧ — وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم. أهم يقسمون رحمة ربك. الزخرف ٣١ — ٣٢

٢٨ — ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون وقالوا أءلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون ... الزخرف ٥٦ — ٥٧

٢٩ — كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل انا عاملون ... فصلت ٣ — ٧

٣٠ — وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون فصلت ٢٦

٣١ — ويل لكل أفاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم . واذا علم من اياتنا شيئاً اتخذها هزواً اولئك لهم عذاب مهين ... الجاثية ٨ — ٩

٣٢ — فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون. أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فاني معكم من المتربصين . أم تأمرهم احلامهم بهذا أم هم قوم طاغون . أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون . الطور ٢٩ — ٣٣

٣٣ — فلا تطع المكذبين . ودّوا لو تدهن فيدهنون . ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . القلم ٨ — ٩

٣٤ — وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بابصارهم لمّا سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون . القلم ٥١

٣٥ — انه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إنْ هذا إلا قول البشر . المدثر ١٨ — ٢٥

٣٦ — إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . واذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون . المطففين ٢٩ — ٣٢

ولا يستكثرن القارىء الآيات التي نقلناها ، فهي مازالت قليلة جداً بالنسبة

لأمثالها في القرآن وقد قصدنا اعطاء صور عديدة ومتنوعة لأساليب الجدل والمكر والتعجيز والاحراج، والسخرية والاجاج والنكاية والاستكبار والصد والاعراض، واللدد في الخصومة ليلمس في ذلك ما نوهنا به من قوة المدارك والعقول ، وحدة الذكاء والبصر في اساليب الجدل والخصومة والاجاج .

ونلفت النظر خاصة الى بعض الصفات التي وصفتهم بها بعض الآيات من انهم كانوا قوماً خصمين ، وانهم كانوا مبينين في الخصومة ، وانهم كانوا شديدي المكر وانهم كانوا يعلمون ، وأنهم كانوا أصحاب أحلام وعقول ؛ ثم الى ما أشارت اليه بعض الآيات وله امثال كثيرة اخرى من ما كان احياناً من اثر مواقفهم هذه في نفس النبي (ص) من أزمات مع ما تحلى به من اخلاق كريمة وصدر واسع ، وعلم بحالات النفوس والقلوب ، وقدرة على الكظم والعفو ، ومداراة الناس ومخاطبتهم حسب عقولهم .

— ٦ —

أما العهد المدني ، فانه مالبث أن صار عهد قوة ومنعة للنبي (ص)والمسلمين ؛ ولذلك اضطر المشاقون والمعارضون إلى الانشاح بثوب النفاق ، والقيام بدورهم بالدس والختل والمكر والتبييت والمؤامرات السرية والغمز واللمز وايغار الصدر والتثبيط في الفرص المواتية والمواقف المساعدة.

ومهما يكن أمر فان موقفهم لم يكن أقل دلالة على قوة العقل والنفس والكيد والدهاء من مشاقي العهد المكي ومعارضيه إن لم يكن اقوي ؛ فمشاقة أصحاب القوة والسلطان تنطوى في احوال كثيرة على جرأة وقوة همة ، وسعة حيلة ودهاء لما يرافقها من التعرض للخطر والأذى ؛ ولذلك فان موقف المشاقين والمعارضين في العهد المدني يصح أن يعد كذلك مقياساً للقوي العقلية في مدينة كبري من مدن الحجاز في عصر النبي (ص) وبيئته ومظهراً لها ، وبالتالي يصح أن يكون دعامة لما تدل عليه مواقف المشاقة والمعارضة من قوي عقلية في عصر النبي (ص) وبيئته بوجه عام وخاصة في المدن الحجازية .

والآن نورد شيئاً من الآيات المكية التي تمثل مواقف المنافقين ، وسيلمح

القارئ فيها جرأة وقوة ، وخبثاً ومكراً سواء في رياتهم وختالهم ومؤامراتهم أم في توليهم الكفار واليهود، أم في جرأة في الاقوال والأفعال في بعض المواقف المحرجة. وقد احتوت الآيات لهذه الأسباب حملة شديدة عليهم وفضائح لهم يتلو بعضها بعضاً، ودعوة إلى الوقوف منهم موقف العنف والصرامة والحزم ، وهو مالم يكن في الآيات المكية بالنسبة للمشاقين في العهد المكي حيث اكتفت الآيات بالتسفيه والانذار والتنديد . وطبيعي أن هذا متسق مع طبيعة كل من العهدين ، وحالة النبي (ص) والمسلمين فيهما :

١ — ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم لاتفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . البقرة ٨ — ١٤

٢ — ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام . وإذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد . واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ... البقرة ٢٠٤ — ٢٠٦

٣ — وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين . وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان يقولون بافواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون . الذين قالوا لأخوانهم وقعدوا لو اطاعونا ما قتلوا قل فادرؤا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ... آل عمران ١٦٦ — ١٦٨

٤ — ألم تر الى الذين يزعمون انهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا ان يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً.

وإذا قيل لهم تعـــالوا إلى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ... النساء ٦٠ — ٦١

٥ — وإن منكم لمن ليبطئن فان اصابتكم مصيبة قال قد انعم الله عليّ إذ لم اكن معهم شهيداً ... النساء ٧٢

٦ — إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً. بشر المنافقين بان لهم عذاباً اليما . الذين يتخذون الكافرين اولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعاً . وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم اذا مثلهم ان الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً . الذين يتربصون بكم فان كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ... النساء ١٣٧ — ١٤١

٧ — لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين. لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر امر الله وهم كارهون. ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . إن تصبك حسنة تسؤهم وان تصبك مصيبة يقولوا قد اخذنا امرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون ... التوبة ٤٧—٥٠

٨ — ويحلفون بالله إنهم لمنكم وماهم منكم ولكنهم قوم يفرقون ... التوبة ٥٦

٩ — ومنهم من يلمزك في الصدقات فان أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها اذا هم يسخطون ... التوبة ٥٨

١٠ — ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب اليم . يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق ان يرضوه إن كانوا مؤمنين ... التوبة ٦١-٦٢

١١ — يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا

إن الله مخرج ماتحذرون(١) . ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ... التوبة ٦٤-٦٥

١٢ — المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ... التوبة ٦٧

١٣ — ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين. فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ... التوبة ٧٥-٧٦

١٤ — الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ... التوبة ٧٩

١٥ — وإذا ما أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين ... التوبة ٨٦

١٦ — والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن اردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون ... التوبة ١٠٧

١٧ — واذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض هل يراكم من احد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون ... التوبة ١٢٧

١٨ — وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غروراً . وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وماهي بعورة إن يريدون إلا فراراً . ولو دخلت عليهم من اقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار وكان عهد الله مسئولاً ... الاحزاب ١٢-١٥

١٩ — قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً . اشحة عليكم فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور اعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد أشحة على الخير

(١) كانوا يتفكهون في مجالسهم قائلين الآن ينزل فينا على النبي (ص) سورة في معرض الاستهزاء .

اولئك لم يؤمنوا ... الاحزاب ١٨ — ١٩

٢٠ — لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لايجاورونك فيها إلا قليلا . ملعونين اين ماثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ... الاحزاب ٦٠ — ٦١

٢١ — ألم تر الى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالاثم والعدوان ومعصية الرسول واذا جاؤك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله (١) بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير... المجادلة ٨

٢٢ — اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جُنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ... المنافقون ١ — ٢

٢٣ — هم الذين يقولون لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضّوا ولله خزائن السماوات والارض ولكن المنافقين لايفقهون . يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لايعلمون ... المنافقون ٧ — ٨

وهذه الآيات ليست كل ماورد في صور مواقف المنافقين ، ولكنها تساعد على مانظن على اقتباس الصور التي أردناها ، وتبين مقدار ما كان فيهم من حيوية ونشاط وحدة ذهن وقوة عقل وجلد ودهاء .

(١) من قبل الاستهزاء .